مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث. دبي
مركز الدراسات الإسلامية . باكو

مختصر

تاريخ أذربيجان

الدكتور
محمود إسماعيل

ترجمه عن الأذربيجانية

الدكتور
رفيق عليوف

الدكتور
رامز مرسالوف

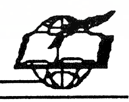
عني بضبط النص العربي

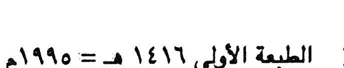
الدكتور نزار أباظة

مختصر تاريخ أذربيجان / تأليف محمود إسماعيل؛ ترجمة رفيق عليوف، رامز مرسالوف؛ ضبط نزار أباظة .ـ دبي : مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث؛ باكو: مركز الدراسات الإسلامية، ١٩٩٥.
ـ ٨٧ ص.؛ ٢٤سم.

١ - ٩٥٨ إ س م م   ٢ - العنوان   ٣ - إسماعيل
٤ - عليوف   ٥ - مرسالوف   ٦ - أباظة

تمت الفهرسة في مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث





الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ = ١٩٩٥م

الإمارات العربية المتحدة - دبي
ص . ب (٥٥١٥٦) - هاتف : ٦٢٤٩٩٩ (٠٤)
فاكس ٦٩٦٩٥٠ - تلكس : عرب ٤٦١٨٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المركز

تحقيقاً لأهداف مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي في إجراء البحوث والدراسات التي تسهم في نشر الفكر والثقافة والتراث الإنساني، وتحقيقاً لأهدافه كذلك في التعاون مع المراكز الثقافية لإخراج الأعمال المفيدة. ينشر اليوم بالتنسيق مع مركز الدراسات الإسلامية(إرشاد) كتاب «مختصر تاريخ أذربيجان» بعدما استقلت هي وعدد من بلدان آسيا الوسطى إثر انهيار الاتحاد السوفييتي السابق.

ولعله يقدم في مرات قادمات مثيلاته عن بقية بلدان الجمهوريات الإسلامية للتعريف المجمل بها.

نسأل الله أن يسدد خطوات المركز ويرشده إلى ما ينفع العلم والثقافة.

قسم الدراسات والنشر

مقدمة المؤلف

إن تاريخ أذربيجان في العصر القديم والوسيط تاريخ عسير الفهم، لأنه يتطلب من القائم عليه معلومات واسعة ومعرفة عميقة وإلماماً كاملاً بمختلف مجالات العلم مما لا يحتاج إليه أي باحث في التاريخ الحديث.

وبديهي أن مؤلفات قيمة عدة وضعت في تاريخ أذربيجان القديم، رتبها أصحابها، وبوبوها، واعتمدوا فيها على مصادر علمية، لكن الأيام عبثت بأكثر هذه المؤلفات فلم يصل إلينا منها إلا القليل الذي لم ينل حظه من الدراسة الوافية.

إن الغموض يشوب تاريخ نشوء الشعب الأذربيجاني، مع أنه من الشعوب القديمة ذات الحضارة الإنسانية العميقة، وهذا الغموض هو الذي يدفع العدو إلى تزييف حقائق ذلك التاريخ لقطع الجذور القومية فيه.

من أجل ذلك شرعت في تأليف هذا الكتاب لأزيل ذاك الغموض عن تاريخنا، واضعاً في نيتي أن أتبع التسلسل التاريخي، وأقدم بحثاً في تاريخ أذربيجان على نحو واضح معتمداً على استنطاق الآثار المكتوبة وغير المكتوبة والرسوم المختلفة والنقوش المتفرقة في أنقاض المدن بشتى مناطق أذربيجان، الأمر الذي يرد على المزيفين الحاقدين.

*　　*

تشغل أذربيجان كتلة من اليابسة كبيرة الاتساع، تبلغ مساحتها ٨٦,٦ ألف

كيلومتر مربع، تقع في الجزء الشرقي لمنطقة ماوراء جبال القوقاز (قفقازيا).

تحد أذربيجان من الشمال جمهورية داغستان، ومن الشمال الغربي جمهورية جورجستان، ومن الجنوب الغربي جمهورية أرمينيا، ومن الجنوب جمهورية إيران الإسلامية، وحدودها معها ٦١١ كيلومتر، وكذلك الجمهورية التركية بحدود ١١ كيلو متر. كما يحدها من الشرق سواحل بحر الخزر (قزوين) على طول ٨٢٥ كيلومتر.

في أذربيجان ٦٢ مدينة، أكبرها مدن باكو - وهي العاصمة - وكانجا وسومغابييت.

يبلغ عدد سكان جمهورية أذربيجان وفقاً لإحصائيات عام ١٩٨٢ ٦,٣٠٣,٠٠٠ نسمة. دين الدولة الرسمي الإسلام.

وأذربيجان بلاد غنية، فيها ثروات طبيعية، أهمها النفط والفولاذ، كما أن أرضها خصبة، تدر خيرات وفيرة، من أشهرها القطن والعنب.

أسأل الله أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم.

د. محمود إسماعيل

الفصل الأول

أذربيجان القديمة حتى القرن السادس

أذربيجان القديمة
حتى القرن السادس

أذربيجان من بلاد العالم الموغلة في القدم، وقد أثبت الباحثون بالاستناد إلى معطيات علم الآثار أن الإنسان البدائي سكنها منذ العصر الحجري القديم.

وإن غنى أراضيها بالثروات الطبيعية وموقعها الطبيعي كانا من أهم الدواعي التي لفتت إليها نظر الغزاة الأجانب والمعتدين، ولهذا فليس مستغرباً أن تكون حدودها قد توسعت تارة وتقلصت تارة أخرى، كما لاغرو أن تفقد استقلالها وسيادتها على أرضها طوراً، وتستعيدها طوراً آخر.

وقد شهدت هذه البلاد فيما مضى نشوء عديد من السلالات الملكية والدويلات والدول على أراضيها ثم زوالها، كما سبق للشعب الأذربيجاني أن عانى كثيراً من الحروب العدوانية التي عمت وطنه وهزته من أدناه إلى أقصاه.

يرى بعض الباحثين أن أذربيجان كانت تسمى بلاد آس، أو ديار رجال آس أو بلد آسار نسبة لطائفة آس التركية الأصل التي سكنتها، في حين يعتقد أكثر المؤرخين أن اسم أذربيجان موغل في أعماق التاريخ، وأنه مؤلف من ثلاث كلمات «آذر» بمعنى النار، و«باي» تعني الأراضي الغنية بالثروات، و«جان» معناها ذات السمو والاحترام والعزة. لكن فريقاً من الدارسين يشيرون إلى أن أذربيجان اسم لإحدى المناطق التي خضعت لمملكة

الأهامانيين الفارسية وهي منطقة أطروبات جنوب أذربيجان التي تطور اسمها مع الزمن إلى أطروباتينة وأطروباتاغان وهكذا حتى صار يلفظ أذربيجان.

تشير الآثار المتبقية على سواحل نهر قوروتشاي الذي كان يجري منذ زمن موغل في القدم عبر منطقة تسمى الآن «جنينة طوغ» إلى مخلوقات تشبه الإنسان، تمشي على رجلين كانت تعيش قبل مليون ونصف المليون من السنين أو مليونين. وقد اكتشف قرب ذاك النهر في غار أزيخ عظم ذقن مع ثلاثة أسنان لفتاة عمرها بين ١٨ و ١٩ سنة، الأمر الذي يدل على مساكن بشرية كانت هناك، وهي إحدى المناطق السكنية الأربع المكتشفة على الأرض. كما اكتشف علماء الآثار مساكن أخرى للإنسان القديم في أذربيجان.

وترك الإنسان الأول رسوماً على الصخور في منطقة أبشيرون وعلى صخور جاميقايا في ناخجيوان القديمة وفي مختلف نواحي منطقة كالباجار وغيرها. إن هذه النقوش التي ترجع إلى العصر الحجري الحديث تدل بوضوح على أن سكان تلك المناطق اشتغلوا بالأعمال البحرية، فقد صورت تلك النقوش صوراً لقوارب تحمل في مقدماتها رسوماً للشمس، مما يشير إلى صلة أولئك السكان بالسومريين من شعوب العالم المتحضر قديماً.

وإذا كانت البشرية قد مرت بعد العصر الحجري بالعصرين النحاسي ثم البرونزي فإن العصر الحديدي بعدها امتاز بالمستوى الحضاري الفائق، فنشأت مهنة صهر الحديد في أوائل الألف الأول قبل الميلاد وأسفرت عن تغيرات جبارة في حياة الإنسان منها قيام الفروق في الملكية وقيام الدويلات. وانهيار المجتمع الإنساني البدائي مرتبط باسم السومريين، وقد بدأ ذلك

بالطوائف التي تسكن الأرض المسماة فيما بعد أذربيجان، والأرض المحيطة ببحيرة أورمو، قبل أن يحدث ذلك في أي بقعة من العالم.

وقامت على أرض أذربيجان تشكيلات بشرية ووحدات طوائف في أواخر الألف الثاني وأوائل الألف الأول قبل الميلاد، أغلبها محلية الأصل، عاشت فيها منذ القدم. ويعتقد بعض المؤرخين أن الأجداد الأوائل لهذه الطوائف التي تتفاهم بإحدى اللهجات التركية كانت مجاورة للسومريين الذين سكنوا الأراضي الغربية من قارة آسيا، مما أحدث تأثيراً متبادلاً بين لغة هؤلاء وأولئك. ويشار في بعض مخطوطات المئة الرابعة عشرة إلى وجود طائفة التوركيين قرب بحيرة أورمو، ويعتقد أن هؤلاء هم الأجداد القدماء للطوائف التي قطنت أذربيجان، وتكلمت التركية فيما بعد. وكان إلى جانب هذه الطوائف طائفة ساك ماساحيتيون، انتقلت إلى أذربيجان منذ القديم من آسيا الوسطى، وكانت أكثر عدداً، احتلت جزءاً كبيراً من الأراضي في المئة السابعة قبل الميلاد.

ويرى مؤرخو القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين في أوربا وروسيا أن بعض الطوائف المنتمية إلى طوائف أيشغور كطائفة ساك ماساتيت أو حتى طوائف أيشغور بأجمعها تتفاهم بالتركية. إلا أن المصادر الحديثة تعد هذه الطوائف شعوباً تتكلم بإحدى اللغات الفارسية. والذي لاشك فيه أن طائفة ساك كانت تتحدث إحدى اللغات التركية. وقد كتب ميناندر المؤرخ البيزنطي الذي عاش في القرن السادس يقول: «كانوا يسمون الأتراك في الأزمنة القديمة ساكا». كما يقول سيموكاتا : «... طوائف إيشغور التي تعيش في القوقاز

والشمال، هؤلاء هم الأتراك». ويذكر يوسف وزير أحد العلماء الأذربيجانيين البارزين أسماء مثل الباتاي والقوزاتاي والأوكتاباي والبوغاتاي وغيرها من أسماء إيشغور ساك ويعدها طوائف لغتها تركية.

في أواخر الألف الثاني وأوائل الألف الأول قبل الميلاد بدأت تظهر الفروق الاجتماعية في أذربيجان، وقد تكونت آنذاك وحدات سياسية ذات حجم كبير جنباً إلى جنب مع مراكز قبلية طائفية على ساحل بحيرة أورمو في أوائل الألف الأول قبل الميلاد، وتسمى رؤساء تلك الوحدات بالقياصرة.

وتعرضت المنطقة لغزوات أجنبية وخاصة غزوات قياصرة آيسوريا، مما دفع الطوائف التي تقطن أذربيجان إلى التكاتف والعمل على بناء دولة موحدة فيها، فنشأت دولة مانا، وتعززت في النصف الثاني للقرن التاسع قبل الميلاد، لتصد هجمات ملوك آيسوريا غير المنقطعة على سواحل بحيرة أورمو. وقد ورثت دولة مانا طوائف كوتي ولولوبي وهوريث وغيرها من ساكني المنطقة في الألف الثالث والثاني قبل الميلاد. ومانا اسم ساحلي يعتقد الباحثون أنه اسم إحدى الطوائف التي كانت تسكن ساحل البحيرة المذكورة.

وكان إيرانزو من أشهر قياصرة دولة مانا، وقد اتسعت مساحة الدولة في زمنه إلى درجة ملحوظة، فضمت الأراضي الجنوبية والشرقية من البحيرة، وكذلك الضفاف العليا لنهر قيزيل أوزان. بل وضم إليه في بعض الفترات أراضي ناخجيوان.

فلما كان عام ٦٥٠ ق.م. قضت آيسوريا على دولة مانا نهائياً، وألحقت أراضيها بدولة ميديا التي قامت على أراضي إيران الحالية في السبعينيات

من القرن السابع قبل الميلاد. وقد امتدت حدود ميديا - إحدى الدول الجبارة في الشرق القديم - نحو آسيا الصغرى حتى نهر قيزيل إيرماق وفي الجنوب حتى الخليج، وإلى الشمال حتى نهر أراز. لكن أراضي أذربيجان شمال هذا النهر لم تدخل في حدود هذه الدولة، بل قامت عليها منذ القرن الرابع قبل الميلاد قيصرية ألبانية المسيحية.

وأجمع المؤرخون على أن طوائف الساك أسست مملكتها على هذه الأراضي، وكانت مساحة ساكاساني أو شاكاشاني حسب رأي دياكونوف أحد المؤرخين البارزين تمتد من المجرى الأيمن لنهر كور شمالاً (كانجا وقازاخ اليوم) حتى سواحل بحيرة أورمو في الجنوب، وكان اسمها شاكي.

ولم تعمر دولة ميديا طويلاً، إذ مالبث الفرس في أواسط القرن السادس قبل الميلاد أن قاموا بثورة قضوا عليها، وأنشأوا دولة الأهامانيين، الذين احتلوا جزءاً كبيراً من أراضي أذربيجان.

وفي القرن الرابع قبل الميلاد، وفي وقت واحد نشأت في أذربيجان دولتان اثنتان؛ دولة الأطروباتينة في الجنوب، ومملكة ألبانية في الشمال، ضمت الأولى الأراضي الحالية لأذربيجان الجنوبية وكردستان الإيرانية. وقد قامت أطروباتينة بسبب هجوم الاسكندر المكدوني على دولة الأهامانيين وقضائه عليها بعد معركة وقعت قرب «قاوقاميل»، اندحر فيها ملكهم دارا الثالث عام ٣٣١ق.م.

وتقول المصادر الجورجية: إنه عند هجوم الإسكندر على الأهامانيين صادف في طريقه «طوائف البونتوركيين» واضطرها إلى التراجع باتجاه «نهر

كور»، وكانت هذه الطوائف من الأتراك الذين يسكنون منطقتي «متيجينت» وساركينة في مملكة جورجستان. وبحسب مصادر أخرى فإن هؤلاء كانوا يسكنون تلك الأراضي قبل هجوم الإسكندر بزمن طويل، أو بالأحرى منذ القرن السادس قبل الميلاد. وقد أخذت دولة أطروباتينة التي تأسست في الأراضي الجنوبية من أذربيجان بعد انهيار إمبراطورية الأهامانيين أخذت اسمها من اسم هذه الأرض وليس من اسم أطروبات أول قياصرتها. وغير معلوم كم استمرت أطروباتينة - التي نشأت في القرن الرابع قبل الميلاد وكانت تضم أرمينية وإيبريا (جورجيا الحالية) - دولة مستقلة، إلا أنها خضعت لدولة بارفيا الفارسية في عهد ميتريدات الأول (١٧٠ - ١٣٩ ق.م.) . ثم مالبثت أن حصلت على استقلالها من جديد عندما ضعفت بارفيا في القرن الأول.

ومع نشوء أطروباتينة اتخذت قانزاك عاصمة لها، وكانت هذه المدينة معبداً للنار، يقدسها سكانها الذين كانوا خليطاً من الميديين والساكيين والساغارتيين والأوتيين والميكيين والكاكوسيين والكاسبيين والماتيتيين والمارديين وطوائف أخرى تنتسب إلى مجموعات لغوية، لا نملك عنها معلومات موثوقة. وقد اختلطت هذه الجماعات بعضها مع بعض بمرور الزمن. ولسنا ندري طبيعة اللغة التي كان يتكلم بها هؤلاء.

ومنذ القديم انقسمت أراضي أذربيجان قسمين كما هو الحال الآن؛ القسم الجنوبي، وانضم إلى أطروباتينة، بينما قامت على الجزء الشمالي مملكة ألبانية. ويرى استرابون أن طوائف ألبانية كانت تتوضع حول المجرى الأوسط والسفلي لنهر كور وعلى الضفة اليسرى أيضاً، كما ويدخل معها الكاسبيين

الذين سكنوا برأيه ضفاف هذا النهر، وهكذا يمد أراضي ألبانية إلى الأجزاء السفلى للنهر المذكور بل حتى نهر أراز.

على أن غالب الباحثين المعاصرين يجعلون حدود ألبانية بين نهر أراز في الجنوب وسلاسل جبال القوقاز في الشمال وبحر الخزر في الشرق وإيبريا ونهر الأزان في الغرب. وهذه المساحة – ماعدا كامبيسينة وغوغارينة الداخلة في جورجيا حالياً، وسونيك (سيسيان الحالية) الداخلة في أرمينية – تكاد تساوي مساحة أذربيجان الشمالية، وينبغي أن تضم إليها كذلك بعض الأراضي الجنوبية من داغستان اليوم.

وكانت ألبانية تضم آنذاك ستاً وعشرين طائفة، إحداها طائفة الألبان الذين استطاعوا أن يوحدوا بقية الطوائف حولهم، وكان إلى جانبهم الأوتيون وهم من أكبر الطوائف، وكانوا -كما يقول المؤرخ اليوناني بليني- يسكنون شمال الألبان ويكادون يصلون إلى أراضي داغستان الحالية. ويذكر بليني أيضاً طائفتين سكنتا في الأراضي الواقعة شمال ألبانية، وهما الغيليوم والليغيون، الأولون كانوا ينزلون ساحل بحر الخزر؛ في المناطق الجبلية منه وجنوب غربه (جيلان الحالية)، والآخرون أقاموا في أقصى الشمال على ضفاف نهر سامور (على الحدود بين داغستان و أذربيجان). ويمكن الإشارة إلى طوائف أخرى وفدت إلى ألبانيا مثل الكانكارية والصابرية، وكانت تتفاهم بالتركية، ونزلت منطقة القوقاز الجنوبية وأذربيجان قبل الميلاد، يذكر ذلك استرابون وبليني الكبير اليونانيان اللذان عاشا في القرن الأول قبل الميلاد والقرن الأول الميلادي.

إن المعلومات التي جاء بها كذلك المؤرخ اليوناني بطليموس (القرن الثاني ق.م.) ذات أهمية كبيرة في تاريخ أذربيجان، وقد رسم خارطة عليها ٢٩ مدينة ومنطقة سكنية في ألبانية، كما تشير إلى إحداثيات الأماكن الجغرافية ومواقعها. ومن أهمها مدينة قَبَلَة التي أثرت تأثيراً مهماً في الحياة السياسية والإيديولوجية لألبانية، وكانت مقر ملوكها في القرون الخمسة الأولى للميلاد.

يتميز القرن الأول قبل الميلاد ببدء الكفاح الصارم لشعب أذربيجان ضد اعتداء الرومان وصدهم هجماتهم، مما جمع الطوائف الألبانية التي أخذت تتحول إلى وحدة عضوية كانت قاعدة لنشوء شعب ينتمي إلى عرق واحد، ولم تكن هذه الوحدة حلفاً أو تجمعاً عسكرياً متعدداً.

ويعد دخول الجيوش الرومانية التي كانت تطارد ميتريدات قيصر بونت عام ٦٥ق.م. إلى أراضي ألبانية بقيادة بومبي أحد القادة العسكريين البارزين في العهد الأنطيقي، يعد ذلك صحيفة مشرقة في كفاح ألبانيا ضد الرومان، وقد شاركت النسوة في تلك الفترة بالحرب وكان عددهن لايقل عن عدد الرجال الأسرى والجرحى.

وبالاضافة إلى هجمات الرومان فقد كانت أراضي أذربيجان الشمالية (ألبانية) والجنوبية (أطروباتينة) تتعرض لهجمات طوائف مختلفة من الشمال عبر ممرات القوقاز، سواء من البدو الرحل أم من الأقوام المتمدنين.

وكانت الطوائف التي تسكن مانا وأطروباتينة وألبانية ذات عقائد وعادات وتقاليد دينية خاصة بها، بدأت تتحول مع الزمن وبعد انضمام وحدات الطوائف إلى عقائد لجميع السكان، وقد كشف عنها علماء الآثار من خلال

التماثيل والأواني التي تحمل صور الشمس والقمر وبعض الحيوانات وصوراً لعازفين وجماعات الراقصين، ومن خلال رسومات على الصخور في أبشيرون وكوبوستان وكاميقايا.

فقد صورت تلك الصخور الرقص الجماعي وعازفين على آلة موسيقية تشبه آلة الساز عند المغنين المعاصرين، مما يدل على صلة غير مباشرة بين الحفدة والأجداد، فالرقصات الجماعية التي كانت معروفة آنذاك هي التي يرقصها الشعب الأذربيجاني اليوم، والموسيقيون الشعبيون لايزالون حتى الآن يواصلون العزف على آلة الساز كما كان أوائلهم، وهي آلة خاصة بالشعوب التركية.

وانتشر في أرض أذربيجان من قبل عبادة الحيوانات المختلفة والشمس والقمر والأصنام. ولكن الديانة الرسمية السائدة وخاصة في أطروباتينة - كما هو الحال في بلاد فارس - كانت الزردشتية القائمة على تقديس النار وعبادتها والإيمان بكتابها المقدس «أويستا» أو «أفستا» الذي وصل إليها بعد تغيرات عديدة عبر الأيام.

وفي عام ٢٢٤م قضى الساسانيون الفرس على الإرشاكيين، ولما تمكنوا أخذوا يهاجمون الدول المجاورة، فاستولوا على أطروباتينة، وجعلوا منها إحدى الولايات الفارسية، ثم حاولوا الاستيلاء على ألبانية وظفروا بها نسبياً بعد معارك طويلة، وغدت شبه تابعة لهم، وتحول الألبانيون من عبادة الأصنام في القرن الرابع إلى عبادة القمر والكواكب، وصار انتشار الدين الواحد أداة عند حكام ألبانية لتعزيز حكمهم وإحكام سيطرتهم.

ثم دخلت المسيحية ألبانية،، وصارت دين الدولة الرسمي، وبنيت أول كنيسة في مدينة قَبَلَة، ثم غدت ولاية أرساخ الألبانية (قاراباغ اليوم) إحدى مراكز النصرانية. وقد أدى انتشارها إلى تعزيز العلاقات بين الطوائف واختلاطها فيما بينها واتحادها على دين واحد، وإن حافظت على لغاتها وصفاتها القومية .. لكنها سارت بالتدريج نحو توحيد اللغة، فأصبحت لغة آران وسيلة التفاهم بين القبائل.

ولم تقتصر هذه الوحدة اللغوية على طوائف ألبانية فحسب، بل انضمت إليها طوائف وافدة منذ القرن الثالث وقبله كطوائف الهونيين والصابريين وغيرهم، وكانت غالبية هذه الطوائف تتحدث التركية، وإن كانت للهونيين والصابريين وغيرهم لغاتهم الخاصة بهم.

وإذن ففي القرنين الرابع والخامس كانت القاعدة مهيأة لنشوء شعب واحد في الوقت الذي بدأ الساسانيون الذين غلبوا على ألبانيا ببناء منشأة دفاعية في ممر دربند، ثم أنشأوا فيما بعد قلعة الدربند المشهورة.

وبسبب الصلات المعقَّدة بين الفرس والبيزنطيين استطاعت ألبانية استعادة ولايتي أرساخ وأوتي اللتين استولت عليهما أرمينية وبذلك امتدت أراضي ألبانية في القرن الخامس من ضفاف نهر كور اليمنى ومن خوكاناكارت إلى موضع التقاء نهري كور وأراز.

وفي القرن الثاني قبل الميلاد -أي قبل وصول الهونيين- انتقل عدد كبير من السالاريين وهم من طوائف الأوغوزية إلى أذربيجان واختلطوا بالسكان المحليين في مكان داخل ألبانية يسمى أران، وكانت ألبانية تسمى أحياناً في

العصر الوسيط أران.

وبحسب معلومات من مصدر خاص فإن ألبانية كانت في القرن السابع تنقسم إلى إحدى عشرة ولاية، تقع على ضفتي نهر كور، وتمتد حتى نهر أراز في الجنوب.

ومن هذه الولايات ولاية أرساخ على الضفة اليمنى لنهر كور، وكانت تتألف من اثنتي عشرة وحدة إدارية صغيرة، وكان يسكنها في مطلع العصر الوسيط جماعات من القارقاريين والهونيين والأوتيين والخزريين والباسليين، وكانت لغتهم على مايبدو تتألف من الجذور الأصلية للغة الأذربيجانية.

وفي القرون الميلادية الأولى نشأت مملكة ماسكوت وعاصمتها جولا في الشمال الشرقي من ألبانية بين دربند وقوبا الحاليتين، وبتعبير أدق بين جبال بيش بارماق ومدينة دربند، ويحتمل أن تكون هذه المملكة من بقايا مملكة المسكونيين المذكورة، أو من بقايا مملكة شاكيشينية التي كانت في أراضي أذربيجان الشمالية في القرن السابع قبل الميلاد.

ويشير المؤرخ الروسي المعروف بارتولد إلى وجود طائفة من طوائف الأوغوز القديمة تسمى الجول وهؤلاء الجول كان موطنهم القديم في منغوليا، ثم انتقلوا إلى سواحل بحر أرال، ومنها في أواسط القرن الرابع الميلادي إلى الغرب، ثم إلى الشمال عبر الساحل الشرقي لبحر الخزر، واسم جولة مرتبط بها.

وقد تعرضت ألبانية وأطروباتينة لغزو الساسانيين خلال مايزيد عن ثلاثة قرون، الأمر الذي أدى بهما إلى الاندماج في دولة واحدة ضمت جميع أراضي

أذربيجان، ونشأ عن ذلك قيام ظروف ملائمة للتقارب الاقتصادي والمعنوي والثقافي بين قسمي أذربيجان القديمة.

وكانت هجمات الطوائف المتنقلة على المنطقة عبر ممر دربند تزيد حياة الألبانيين سوءاً، فقد هاجمها الهونيون قبل القرن الثاني، والصابريون والقوشانيون -وهم من طوائف الهون- في أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس. وكان هؤلاء الغزاة مايلبثون أن يستقروا في المنطقة.

وفي أواخر القرن السادس بدأت هجمات طوائف الخزر التي تتكلم التركية على ألبانيه، وقد رجع قسم من هؤلاء مع الغنائم، بينما اختار القسم الآخر استيطان ألبانية.

وعندما اتسعت الحروب بين الفرس والبيزنطيين من أجل الاستيلاء على القوقاز الجنوبية ضعفت دولة الساسانيين الفارسية، فاستيقظت ميول الحرية عند الألبانيين.

في هذه الفترة جاء مهران من بلاد فارس مع ثلاثين ألف أسرة سكنت في أواخر القرن السادس وأوائل السابع على ضفاف نهر كيردمان وعبر المجرى الشرقي لنهر شام خود جاي، فكون هناك مملكة صغيرة مستقلة. وانتهز مهران ضعف فارس الساسانية فوسع أراضي دولة المهرانيين واستولى على منطقة باردا ونقل مقره إليها.

ومن الدول التي حكمت ألبانيا الدولة الكيردمانية، ومن أبرز ملوكها جاوانشير (٦٣٨-٦٧٠)، وكان يطلق على خلفائه اسم أران شاهلار.

ولم يرض الساسانيون باستقلال ألبانيا فكانوا يواصلون هجماتهم عليها

فعمل جاوانشير على تسليح الألبانيين فانتصروا، وغلبوا الجيوش الساسانية وحصلوا على غنائم وافره وأسرى عديدين، ولكن الفرس عادوا فهجموا من جديد ونشبت معركة في منطقة جبلية.

في ذاك الوقت كانت المنطقة الشمالية من أذربيجان تشهد قيام دولة الشيروانيين، وذلك بعد سقوط مملكة ماسكوت على أيدي الساسانيين عام ٥١٠.

ويطلق بعض مؤرخي العصر الوسيط اسم شيروان على أراضي ألبانية الواقعة على الساحل الغربي لبحر الخزر، شرق نهر كور حتى ضفاف نهر آغسو، حيث كانت تسكن طوائف الهونيين والخزر والكاسبيين والإجميخ والبيجينيغ والماسكوت، وكلها كانت تتفاهم بالتركية.

وفي ذاك الوقت حصلت مملكة شاكي على استقلالها جنباً إلى جنب مع مملكة شيروان.

الفصل الثاني

نشوء الشعب الأذربيجاني

نشوء الشعب الأذربيجاني

يزعم بعض المؤرخين أن مفهوم أذربيجان وشعب أذربيجان لم يستعمل قبل القرن الحادي عشر، وإنما كان في المنطقة جماعة من الفرس، خلّفهم السلجوقيون الذين وفدوا على المنطقة في القرن الحادي عشر الميلادي.

ولما كان الشعب ينشأ نتيجة اختلاط بعض الناس ببعض خلال مئات السنين، ونتيجة ظهور وحدة لغوية فيما بينها فعلينا إذن أن نعرف قبل كل شئ الطوائف التي كانت تسكن أراضي أذربيجان ونسبتها اللغوية. وقد ذكرنا سابقاً أن الطوائف المحلية كانت تضم الساكيين والكانكاريين والساسبيريين والتوروكيين والكاسبيين والبانتيين والبونتوركيين وغيرهم، وهؤلاء كانوا يتفاهمون بإحدى اللهجات التركية.

وقد زعم أحد العلماء الذين قاموا بدراسة مقارنة لبعض الكلمات التركية أن كلمة ألبانية ذات منشأ تركي، وأن ألبانية كانت مملكة تركية. وأثبت بعض الذين بحثوا في أصول الأذربيجانيين القدماء أن أسماء الملوك الألبانيين مثل كوسيس وأوريس (أوروزو) تدل على أن الطوائف التي سكنت المنطقة كانت تتفاهم بإحدى اللهجات التركية، وحجتهم في ذلك كتاب دادا قورقود، ففيه كلمات مثل ألبان وأوروز، كما نجد اسم قازان خان رئيس طائفة ألب في كتاب تاريخ ألبانية.

وتدل بحوث مؤلفي القازاخ والقيرغيز والأوزبك أن الألبانيين الذين كانوا يسكنون أراضيهم كان لهم أثر بارز في نشوء شعوب القازاخ والأوزبك والتركمان والقيرغين، وهذا دليل يقدم أساساً مهماً عن لغة الألبانيين.

وكان في ألبانية خلال المئتين الخامسة والسادسة ثلاث عشرة طائفة تتفاهم بإحدى اللهجات التركية، ومن هؤلاء الهونيون والأوغوزيون الصفر والبولغاريون والخزريون البيض والخزريون الصابريون، والأونوغوريون والبارسيليون وغيرهم.

وقد أشرنا من قبل إلى قيام مملكة ماسكوت في أذربيجان الشمالية على حدودها مع داغستان، وكانت أراضيها أحياناً تمتد حتى حدود موغان. وبرأي بعض الباحثين نستطيع القول: إن الأراضي الواقعة بين مملكة هون والبلاد التي كان جاوانشير يحكمها على الضفة اليسرى لنهر كور الخاصة بطائفة البروتوبولغاريين كانت المركز السياسي الأساسي للمنطقة.

هذا وقد تحدثنا سابقاً عن الكانكاريين سكان أذربيجان القدامى، وبعض العلماء يسوون بينهم وبين البيجينغيين الذين سكنوا ناخجيوان وسهول ميل وفي أوردوباد وأرساخ خاصة في الألفين الثاني والأول قبل الميلاد. ويشير العالم الجورجي كيلاناوا إلى أن اسمي كارتلي وإيبير الجورجيين يحملان معنى لغوياً واحداً، ويشيران إلى عرق واحد، مع أن الجورجيين القدماء لم يستعملوا اسم كارتلي، فإذا كان هذا صحيحاً فمن أين جاء اسم الإيبيريين؟ يرى كيلاناوا المذكور أن الطوائف التي كانت تتفاهم فيما بينها بالتركية وتسكن بجوار الأراضي التي يسكنها الجورجيون القدماء وإلى الشرق منها

كانت تسمى باسم الايبيريين، الذي ورد في مؤلفات استرابون وبلوتارخ وبطليموس وسقراط. وإذن فقد كان في جورجيا الشرقية خلال المئات الأولى للميلاد طوائف تتحدث إحدى اللهجات التركية، وكانت تسمي جيرانها بالايبيريين ويعتقد كثير من الباحثين أن القاقاريين وهم من أقدم الطوائف التي سكنت ألبانيا كانوا يتفاهمون بإحدى اللغات التركية.

هذا ويمكننا الإشارة إلى مئات من الكلمات الدالة على أن الطوائف التي سكنت أذربيجان كانت تستخدم لغات تركية، كالكلمات المنتهية بالمقطع «وار» مثل أميروار وأميرواري (منطقتا قونقاشين وجبرائيل) وأحمدوار (أغدام) وبوتاوار (قاخ وحجيلار) وديديوار (ناخجيوان) وخاوارلي (يفلاخ)، وداركوار، وكاراوار، وقوتشيوار، وتيليوار (باردیملي)، وبالوار (صابرأباد) .. إلخ. كما كان يستعمل المقطع «وان» بدل «وار». وهذه التغيرات كانت تحدث مع قدوم طوائف جديدة إلى المنطقة، كما كانت تحدث تغيرات شكلية في الأسماء.

وهكذا يمكننا القول: إنه قبل الميلاد بمئات السنين كانت الطوائف القاطنة على أراضي أذربيجان كافة تتفاهم باللغة التركية، وكذلك كان الحال قبل دخول الإسلام. الأمر الذي أدى لنشوء قاعدة عامة تقوم عليها لغة مشتركة.

وكتب أحد العلماء المتخصصين : «إن ذروة وصول العرق التركي إلى القوقاز الجنوبية وخاصة أذربيجان كان في المئة السابعة، وهذه هي الفترة التي انتهت فيها عملية نشوء اللغة العامة في أذربيجان، حدث هذا في الوقت الذي سكن فيه الصابريون والهونيون والكانكاريون والبولغاريون والبارسيليون والخزر البيض والسنوغوريون وغيرهم من طوائف الأوغوزية والقيبجاقيين أي

العرق الذي يتكلم لغة واحدة تختلف لهجاتها بين منطقة وأخرى في أذربيجان».

وهناك دليل آخر على أن اللغة التركية كانت تسود أذربيجان منذ القِدم، فقد جاء في كتاب «أخبار عبيد بن شريه الجرهمي» أن الخليفة الأموي الأول معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه (٦٦١ - ٦٩٦) سأل عبيد بن شريه الجرهمي الذي وفد عليه وذكر أذربيجان في حديثه معه :

- مابال أذربيجان لله أنت؟

فرد عليه وكان يعرفها معرفة جيدة.

- إنها كانت من أرض الترك واجتمعوا له .

فإذا كان هذا العالم في القرن السابع يثبت هذه الحقيقة، فإن شعب هذه المنطقة إذن كان يتكلم التركية قبل هذا الوقت بزمن طويل. بل وكانت التركية في القرن السابع لغة متكاملة ومنتشرة إلى درجة أنها كانت تؤثر تأثيراً قوياً في لغات الشعوب المجاورة لها، يشهد بذلك أبيغيان الذي يرى أن الشعر الكلاسيكي في القرون الأولى ظهر تحت تأثير اللغتين التركية والأذربيجانية. وقد أشار موردمان في السبعينات من القرن المنصرم إلى أن « لغة الأرمن - وهي من أسرة اللغات الهندية الأوربية - تأثرت تأثيراً واسعاً باللغة التركية» لم يقتصر على بعض الكلمات التي انتقلت إلى الأرمنية بحكم المجاورة مع الأتراك العثمانيين خلال قرون عديدة، بل المقصود الكلمات التي انتقلت إليها منذ القرن الثالث حتى السابع في الوقت الذي لم يظهر بعد السلاجقة ولا العثمانيون ولا الطورانيون.

واكتشف علماء الآثار درع سلحفاة في إحدى المقابر ترجع إلى العصر البرونزي الأخير أي إلى أواخر الألف الثاني وأوائل الألف الأول قبل الميلاد. إن وضع سلحفاة في قبر الميت كان من عادات الطوائف التي تتحدث إحدى اللهجات التركية، يدل عليها كذلك وجود صورة درع سلحفاة على مقبرة قولتاكين، أحد النماذج القديمة للشعوب التي تتكلم التركية.

وإذن فلا أساس علمياً لإظهار الشكوك حول وجود طوائف تركية على أرض أذربيجان في العصور الأولى، تلك الطوائف التي تشكل لغتها الجذور الأساسية للغة الأذربيجانية. كانت تلك طوائف متحدة استطاعت أن تؤثر على شعب بأكمله، وتغير لغته، وتؤثر على نظم الشعر.

هذا وإن عدم الأخذ بهذه الدلائل المذكورة وربط نشوء الشعب الأذربيجاني بوصول السلجوقيين في المئة الحادية عشرة والثانية عشرة خطأ علمي بيّن.

الفصل الثالث

أذربيجان في القرن السابع والثامن والتاسع

الدول الأذربيجانية
من القرن التاسع حتى القرن الخامس عشر

أذربيجان في القرن السابع والثامن والتاسع

الدول الأذربيجانية

من القرن التاسع حتى القرن الخامس عشر

ظهر الإسلام في الجزيرة العربية خلال النصف الأول من القرن السابع، ثم مالبث أن انتشر في أقطار الدنيا، وقامت خلافة عالمية جبارة، تمثل قوة سياسية ضخمة. وقد غزا المسلمون الساسانيين الفرس، واستولوا عام ٥٤ هـ = ٦٧٣م على عاصمتهم كتيسيفون، ثم دخلوا أذربيجان الجنوبية ثم ألبانية، وانتهى الأمر بدخول الأذربيجانيين في الإسلام. وقد أدى انتشار الإسلام في المنطقة إلى تعزيز العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في صفوف الشعب الأذربيجاني الذي كان يضم في ذلك الوقت أطروباتينة وألبانية.

وفي زمن العباسيين حدثت بعض الانتفاضات ضد الهيمنة العربية في المنطقة كان أبرزها حركة الخُرَّميين بقيادة جاويدان. وبدأت الحركة في أردبيل عام ١٩٤ هـ = ٨٠٩م، وتوسعت فشملت ماجاورها. ولما قتل جاويدان في إحدى المعارك عام ٢٠١ هـ = ٨١٦م خلفه بابك وهو أحد أبناء أذربيجان.

استولى الخُرَّميون في عشرينات القرن الثامن على أذربيجان، كما استولوا على همدان إحدى المدن الفارسية. ثم تحولت الانتفاضة إلى حرب مع الخلافة وصلت إلى الذروة.

ولكن الخُرَّمية ضعفت بسبب امتدادها على مساحة واسعة، مما عرقل التحكم بها، كما أن أصحاب الأراضي الذين شاركوا فيها مالبثوا أن تفرقوا عنها، حين وجدوا أنها ضد الإقطاعية.

في تلك المرحلة وجه المعتصم العباسي جميع قواته نحو أذربيجان بقيادة الإفشين الذي شن معارك شرسة عام ٢٢٣ هـ = ٨٣٧م، فقرر بابك الانتقال إلى غرب أذربيجان لكسب الوقت وإعادة تنظيم قواته. لكنه سرعان ماأُسر وسيق إلى المعتصم فقتله في صفر ٢٢٣ هـ = يناير/كانون الثاني عام ٨٣٨م.

إن الشعوب التي انضوت تحت راية الخلافة الإسلامية في منطقة أذربيجان دخلت في علاقات ثقافية متبادلة فيما بينها، وبدأت ثقافة بعضها تؤثر في بعض، كما بدأت تظهر نقاط عامة مشتركة في ثقافات تلك الشعوب وآدابها وفنونها وفكرها، ليس بتأثير الدين الإسلامي الجديد فحسب، بل وبنتيجة العلاقات السياسية والاقتصادية بينها.

ولما ضعفت الخلافة العباسيةأخذت تقوم دعوات الانفصال في البلدان التابعة لها، وقد انتهز الإقطاعيون في أذربيجان هذا الوضع لبسط سيطرتهم. وعندما سقطت الخلافة كانت قد نشأت ممالك شاكي وموغانية جنباً إلى جنب مع مملكة شيروان.

قامت موغانية عند المنطقة التي يلتقي فيها نهر آلازان بنهر كور، ولم يكن لها أية علاقة بسهول موغان. وكانت تابعة لمملكة شيروان، مثل إمارة دربند التي اضطرت إلى قبول هيمنة مملكة شيروان. إلا أن ملوك شاكي استطاعوا حماية استقلالهم خلال القرون التالية.

وقامت على الأراضي الشمالية في أذربيجان أواسط القرن العاشر دولة الشداديين وعاصمتها كانجا، وكانت تحيط بسهول كور وأراز، كما ضمت مناطق باردا وشامكير وخاتشان الأعلى.

وفي تلك الفترة قامت على الأراضي الجنوبية لأذربيجان دول إقطاعية، تحكمها سلالات، تتغير كل مدة. وقد نشأت أولاً دولة الساجيين وعاصمتها تبريز، وكان أمراؤها الذين حكموا أواخر القرن التاسع من أصول تركية، ثم خلفهم على الحكم عام ٩٤٠ سلالة السالاريين، الذين أسقطتهم دولة الرواديين وضمت إليها أراضيها.

إن دول الرواديين والشداديين والساجيين والسالاريين والشروانيين التي قامت بعد سقوط الخلافة العباسية كانت تمثل شعب أذربيجان المتكامل، فقد قامت على الأراضي الأذربيجانية، وكانت عواصمها مدن أذربيجان، وكان سكانها أذربيجانيين، ولو أن بعض حكامها كانوا أجانب.

ومنذ القرن التاسع بدأت بعض المدن الأذربيجانية بالنهوض والازدهار والاتساع، وأشار الباحثون إلى المدن التالية أواخر القرن العاشر : أردبيل، سراب، ميانة، خونة، جبروان، تبريز، مراغة، برزاند، موغان، سالماس، خوي، ناخجيوان، ماراند، أهار، باردا، بيلاقان، كانجا، شامكير، خونان، شاكي، مباركي، قَبَلَة، بارديج، شيروان، خروسان، لايسان، نيال، كيردمان، شابران، دربند، باكو.

وذكر مؤرخو القرنين التاسع والعاشر أن هذه المدن كانت جميلة، كما ذكروا المهن التي اشتغل بها سكانها. أما الذين كتبوا عن مدينة باكو فقد

أشاروا إلى وجود النفط بها وطريقة استخراجه.

وفي أواسط القرن الحادي عشر استولى الأتراك السلاجقة على آسيا الصغرى وعلى خراسان وأصفهان في بلاد فارس، وتغلغلوا حتى وصلوا أذربيجان، فضموا إليهم دولة الشداديين والرواديين، أما ملوك شيروان فقد استطاعوا الاحتفاظ بسلطتهم لقاء خراج عظيم.

وعندما ضعفت دولة السلاجقة قامت في أذربيجان الجنوبية وإيران وناخجيوان دولة كبيرة قوية هي دولة الأتابكيين، وعاصمتها تبرين، أسسها شمس الدين إيلدانيز.

ويعد القرن الثاني عشر مرحلة متميزة في تطور المدن الأذربيجانية، إذ كانت هذه المدن كلها مراكز مهنية وتجارية وثقافية، وكان يعيش في بعضها أكثر من ٢٠٠ ألف نسمة، وفي بعضها أكثر من ١٠٠ ألف.

ويذكر أن مدينة كانجا التي هدمها زلزال عام ١١٣٩ مات بها نحو ٢٣٠ ألف من سكانها، وأن الزلزال هدم ذروة جبل كاباز وقطع مجاري الأنهار الجبلية، فظهرت بحيرة كوي كول ومارال كول في جنوب كانجا.

وتطورت ثقافة الأذربيجانيين منذ القرن الرابع حتى السابع، وظهر علماء برزوا في شتى علوم الطب والفلك والجغرافية والتاريخ والفلسفة، كما برز فنانون برعوا في الموسيقى والرسم، واشتهر شعراء منذ القرن التاسع إلى القرن الثاني عشر، مثل نظامي كانجوي، وخاقاني، وفلكي شيرواني، ومجير الدين البيلاقاني، وماهساتي هانم، وقد أبدع هؤلاء نصوصاً نادرة لامثيل لها من الشعر العالمي. ويكفي واحد من هؤلاء أن يعرّف ببلاده.

وفي أواخر القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر ظهر بعض القادة العسكريين نتيجة التطورات الإقطاعية التي حدثت عند المغول الذين كانوا رعاة رحالين، واشتهر من بين هؤلاء جنكيزخان الذي اهتم بتأسيس جيش قوي، ثم أخذ يستولي على الأراضي المحيطة به.

ولم يستطع الأذربيجانيون تنظيم أنفسهم للدفاع عن بلادهم ضد المغول، بسبب افتقادهم دولة مركزية، ومع ذلك فقد قاوموا مقاومة شديدة في كل مكان.

وقد سبب الغزو المغولي للبلاد أضراراً اقتصادية جسيمة، وأخَّر تطورها، لكن الثقافة والعلوم كانت في تطور مستمر رغم هذا الغزو.

ففي ذاك الوقت بالذات بدأ ضياء الدين حسن أوغلو حياته العلمية وحقق تقدماً في العلوم، كما تم آنذاك بناء مرصد مراغة عام ١٢٥٩م بإشراف نصير الدين الطوسي المشهور، وأسست في تبريز دار العلاج أوائل القرن الرابع عشر الميلادي وكانت داراً عظيمة رغم صغر حجمها، فقد ضمت مؤسسات تعليمية وعلاجية وعلمية. وألحق بها مكتبة غنية كبيرة، وكان يتعلم بها نحو سبعة آلاف طالب.

وظهر من الأسماء اللامعة آنذاك محمود شابوستاري في الفلسفة، وفضل الله رشيد الدين ومحمد ناخجيواني في التاريخ.

وعندما بدأت الدولة المغولية تضعف في أذربيجان أواخر القرن الرابع عشر انتهز حكام الولايات الداخلية ذلك، وعملوا على الاستقلال.

وكان الوضع في الشمال مختلفاً، فقد تحررت مملكة الشيروانيين من

التبعية المغولية، وانتهت سيطرة الكسرانيين على المملكة عام ١٣٨٢م. ووصل إلى حكمها الشاه إبراهيم الأول (١٣٨٢ - ١٤١٧) وأصله من دربند. كان ذكياً فطناً ذا رؤية بعيدة،، تمتع باحترام الشيروانيين، وقويت الدولة في زمنه قوة عظيمة. إلا أن هذا الوضع لم يستمر طويلاً، فقد تعرضت أراضي المملكة لهجوم الغزاة من الشمال والجنوب.

في ذلك الوقت نشأت دولة ضخمة قوية شمال ممر دربند على مساحة واسعة شمال بحر الخزر وشماله الشرقي، هي دولة قيزيل أوردا، التي قويت بعد وصول توختاميش خان إلى الحكم، وكانت أذربيجان تحتل موقعاً مهماً في سياسته التوسعية. كما كانت مركز اهتمام المغتصب الآخر تيمورلنك.

ولما شاهد الشاه إبراهيم الأول الذي كانت أراضيه تمتد من باكو إلى شاكي، ومن دربند إلى نهر كور، لما شاهد وقوع الأراضي المجاورة لمملكته تحت قبضة تيمورلنك، وفهم أن مقاومته ستلحق به أضراراً جسيمة لا يعلم نتائجها، لجأ إلى التفاوض معه.

وفي زمن خلفاء تيمورلنك بعد عام ١٤٠٥ حصل إبراهيم الأول على حرية التصرف وأخذ بتوحيد أذربيجان تحت حكمه، واستولى بادئ الأمر على تبريز عام ١٤٠٦.

سكنت الولايات الجنوبية طوائف قاراقويونلو وآغ قويونلو التي وصلت إليها من آسيا الوسطى مع المغوليين الذين غزوا أذربيجان في القرن الثالث عشر. وقد أخذت هذه الطوائف أسماءها من الصور المثبتة على أعلامها فقد كان على علم طائفة القاراقويونلو كبش أسود، وعلى علم طائفة الآغ قويونلو كبش

أبيض وكلتا الطائفتين من الأصل الأوغوزي.

ضم أمير طائفة القاراقويونلو قارا محمد الأراضي التي تقع شرق بحيرة وان عام ١٣٨٠، وأسس دولة القاراقويونلو الأذربيجانية، وبعد وفاته وصل إلى الحكم ابنه قارا يوسف، وكان جسوراً ذكياً، فاستولى على الأراضي الواقعة جنوب نهر كور، وضم كذلك أراضي جورجستان وأرمينستان وغيرهما.

ضعفت دولة القاراقويونلو نتيجة الصراعات الداخلية، حتى غدت ظروف الشعب صعبة جداً، فمالبث حاكم آغ قويونلو أوزون حسن أن احتل أرمينستان وغالب أراضي جورجستان، ثم قضى على دولة قاراقويونلو، واستولى على أراضيها كاملة بعد عدائه معها واشتداد هذا العداء في الخمسينات من القرن الخامس عشر. وسرعان ماتكونت دولة آغ قويونلو الأذربيجانية التي ضمت جميع الأراضي الجنوبية وقاراباغ وأرمينستان وجورجستان ودياربكر وخوزستان، بالإضافة إلى أردبيل. واتخذت مدينة تبريز عاصمة لها.

وبالرغم من دخول شعوب أخرى في دولتي قاراقويونلو وآغ قويونلو من غير الأذربيجانيين إلا أن هذه الدولة كانت دولة تركية، أنشأتها طوائف اختلطت بالشعب الأذربيجاني.

ويمكننا القول: إن قارا يوسف وأوزون حسن اللذين حكما هاتين الدولتين كانا من القادة العظماء في عصرهما، كما كانت أم أوزون حسن سارا خاتون تتمتع بموهبة دبلوماسية وسياسية. ولكن دولة آغ قويونلو ضعفت نتيجة الصراعات التي استمرت وقتاً طويلاً بين ورثة أوزون حسن.

الفصل الرابع

الدولة الصفوية في أذربيجان

الدولة الصفوية في أذربيجان

انتقلت أردبيل إلى حكم الشيخ صفي الدين أواخر القرن الثالث عشر وتركز الحكم الديني والزمني كله في تلك المدينة بيديه. ثم تعزز حكم ورثته أواسط القرن الخامس عشر في أردبيل، وازدادوا قوة أكثر فأكثر زمن الشاه إسماعيل الصفوي، الذي وصل إلى أردبيل عام ١٤٩٩، وكان عمره خمس عشرة سنة، وانضم إليه كثير من الطوائف الأذربيجانية، مما أضعف دولة آغ قويونلو فانقسمت إلى قسمين.

وفي خريف عام ١٥٠٠ تحركت جيوش الصفويين فعبرت نهر كور نحو شيروان للاستيلاء عليها، وبالرغم من سقوط شيروان وشاماخي إلا أن قلعة قولوستان قرب شاماخي كانت تواصل المقاومة. وعندما علم إسماعيل آغ قويونلو بخبر تقدم الوعيد قائد جيش الصفويين في جيش غفير أخرج جيوشه من شيروان، وأعدها للمعركة في سهل شرور، الذي جرت فيه موقعة حاسمة أواسط عام ١٥٠١. وبدت فيها مقدرة إسماعيل القيادية وجرأته الشخصية. واستطاع الصفويون الاستيلاء على أراض واسعة في أذربيجان.

وامتدت الدولة الصفوية من نهر أمودريا إلى نهر الفرات، واتخذت تبريز عاصمة لها، وكانت الولايات الأذربيجانية قاعدة اقتصادية متطورة لها، كما كانت المواقع القيادية في الحكم والأمور الحربية والشؤون المالية والإدارية

ووظائف القصر بأيدي أعيان أذربيجان الذين كانوا يشكلون ٦٩ أميراً من مجمل المسؤولين البالغ عددهم ٧٤ أميراً. وكانت اللغة الأذربيجانية هي اللغة الرسمية للدولة وكانت تستعمل في أمور القصر والجيش والمكاتبات مع الدول.

ولما توفي الشاه إسماعيل سنة ١٥٢٤ وكان عمره ٣٧ عاماً وخلفه على الملك ابنه تاهماسيب (١٥٢٤ – ١٥٧٦) قام الإقطاعيون والأمراء بانتفاضة، فعاقبهم، وأعادهم إلى سلطته.

وبعد وفاة الشاه تاهماسيب سنة ١٥٧٦ تصارع ولداه حيدر وإسماعيل على الحكم صراعاً شديداً، خرج منه منتصراً محمد خوداباندا (١٥٧٨ – ١٥٨٧)، وكانت الدولة قد ضعفت إلى درجة ملحوظة.

كانت الدولة الصفوية دولة إقطاعية يحكمها الملوك (الشاهيون) حكماً غير محدود، فيصدرون الفرمانات (القوانين)، ويقومون على تنفيذها. وكان من منجزات الدولة الصفوية الأذربيجانية توحيد الأراضي في دولة واحدة وتراجع الهجمات الأجنبية والتطور الملحوظ في شتى مجالات الاقتصاد، مما أثر بشكل إيجابي على تطور الثقافة وازدهارها. وكان من المنجزات الكبيرة لهذا العهد أن غدت الأذربيجانية لغة الدولة الرسمية، وغدت الفصحى لغة ثرية وأبدع بها عدد من الأدباء -منهم خطائي وحبيبي وغيرهما- نماذج أدبية نادرة جداً. وفي تلك الفترة عاش الأديب الكبير محمد فضولي، الذي كتب باللغة الأم.

وتحقق في القرن السادس عشر تطور كبير في مجالات الفنون الجميلة، وقد عرف آنئذ الفنان كمال الدين باهزاد (١٤٥٥–١٥٣٥) أحد كبار النقاشين.

وتقدمت العلوم، وأنشئت دور الكتب، وكان أهمها الخزائن التي أسسها

الصفويون في تبريز، والتي تعد إحدى خزائن الكتب العالمية بغناها وسعتها، كما أنشئ وقتذاك مرصد مراغة، وتطور علم التاريخ تطوراً مهماً لدى الأذربيجانيين، ويعد كتاب حسن باي روملو المؤرخ الأذربيجاني مرجعًا مهمًا لدراسة تاريخ ذاك العهد.

وفي أواخر القرن السادس عشر اتسعت هجمات تركية العثمانية على الدولة الصفوية، فاستولت عام ١٥٨٩ على أوردوبات وماراند وقاراباغ وناخجيوان. واستطاع العثمانيون السيطرة على جميع أراضي أذربيجان ماعدا أردبيل وطاليش وجورجستان الشرقية وأرمينستان.

ولكن الشاه ميرزا عباس الأول استطاع إنهاء الصراعات الداخلية في بلاده، وعمل على إستعادة الأراضي التي استولى عليها العثمانيون، واضطر سلاطينهم إلى توقيع معاهدة سلام في عام ١١٦١، سحبوا جيوشهم على أثرها من أراضي القوقاز الجنوبية. وكانت أعداد كبيرة من الأسر الأرمنية قد انتقلت في أثناء الحرب التركية الايرانية من أرمينية إلى شيروان وخاصة إلى شاماخي وجورجستان.

وبدأت الحياة الاقتصادية في أذربيجان تزداد سوءاً مع أوائل القرن الثامن عشر، فأخذ الاقطاعيون يحكمون حكماً قاسياً، مما أدى إلى استياء الجماهير الشعبية، فأخذت تقوم بانتفاضات في أجزاء من أذربيجان التي كانت تحت حكم إيران.

في ذلك الوقت أخذت روسيا تقوى وتتعزز، وازدادت قوة بوصول بيوتر الأول إلى الحكم، وكان يهتم اهتماماً خاصاً بالصناعة، وهذه تحتاج إلى مواد

الأول إلى الحكم، وكان يهتم اهتماماً خاصاً بالصناعة، وهذه تحتاج إلى مواد خام، كانت تتوافر في القوقاز الجنوبية وخاصة في أذربيجان، ولهذا سعى بيوتر الأول للاستيلاء على شواطئ بحر الخزر بأي ثمن.

بدأت جيوشه بالتقدم سنة ١٧٢٢، فوصلت هاشتارخان، وفي أوائل صيف السنة نفسها غادرها نحو الجنوب بقصد الاستيلاء على دربند وباكو وشاماخي، ولم يلق أية مقاومة في دربند. ودخلت السفن العسكرية الروسية ميناء باكو يوم ١٧ يوليو/تموز عام ١٧٢٣، وطلبت من حاكمها إقامة المعسكر الروسي فيها، فلما جاء الرد بالرفض قامت القوات الغازية بضرب المدينة من البر والبحر، ودمرت جدران القلعة في عدة أماكن.

ولما عبَّرت الحكومة العثمانية في بداية عام ١٧٢٤ عن رفضها احتلال ساحل بحر الخزر جرت مفاوضات بين الروس والعثمانيين أسفرت عن توقيع معاهدة سلام في استنبول عام ١٧٢٤، بقيت بموجبها أراضي الساحل الغربي لبحر الخزر تحت التبعية الروسية، وتحولت أراضي ماوراء القوقاز للسيطرة العثمانية.

وهذه السيطرة الروسية والعثمانية على أذربيجان وضعت إيران في وضع خطير، أجبر الإقطاعيين الايرانيين على الاتحاد لتشكيل قوة مشتركة. وقاد حركة المقاومة أحد كبار الإقطاعيين واسمه نادر الذي كان يخدم شاه إيران، ولذلك سماه تاهماسيب قولوخان، وعينه قائداً على الجيوش الايرانية، فاستطاع الاستيلاء على جزء كبير من أذربيجان الجنوبية، ثم تقدم بسرعة إلى الشمال حتى وصل إلى ضفاف نهر أراز ودخل شيروان بعدما عبر النهر،

واحتل مدينتي كانجا وتفليس.

وكانت الحكومة الايرانية تسخِّر الشعب للقيام بأعمال مختلفة كإنشاء الطرق وإقامة الجسور واستخراج النفط وغير ذلك، كما كانت تعبئ الشباب للخدمة العسكرية الإجبارية، وتنقل بنات الكادحين إلى القصر للخدمة فيه، مما أشعر الشعب بالإهانة. ولذا قامت انتفاضات مسلحة ضد الحكومة، كان نادر شاه يقمعها، ويطارد المتمردين. وقد بعث إلى أذربيجان وداغستان جيشاً من مائة ألف جندي لضرب المقاومة فلم ينجح، واستشرت الثورة في مناطق أذربيجان كافة بين عامي ١٧٤٣و١٧٤٧. وفي هذا العام قتل نادر شاه في قصره غيلة. ثم أدى الصراع بين الإقطاعيين على الحكم إلى انهيار الدولة المركزية نهائياً.

الفصل الخامس

خانيات (ممالك) أذربيجان

خانيات (ممالك) أذربيجان

قامت على الأراضي الأذربيجانية دول إقطاعية مستقلة بلغت أربع عشرة مملكة وخمس سلطنات، وحصلت خمس مملكات على استقلالها في قاراباغ. وكانت أغلب السلطنات وجميع الممالك تخضع لخانية أو أخرى. فخانيات قوتقاشين وإيرين وإيليئو كانت تابعة لخانية شاكي، في حين تبعت ملكيون خانية قاراباغ.

وكانت خانية شاكي التي نشأت على الأراضي الشمالية تعد أقوى خانية تأسست أيام نادر شاه تحت حكم الحاج شالابي الذي قام بمهمة واحدة، هي توحيد الأراضي الأذربيجانية تحت خانيته، أو على الأقل إعادة بناء دولة شيروان. وليس من باب المصادفة أن يكتب شالابي خان على اللوحة المرمرية المعلقة على حائط المسجد الذي بناه في شاكي هذه الكلمات : «الحاج شالابي سلطان ابن قوربان حاكم شاكي وحاكم شيروان عام ١١٦٢ هجرية» (١٧٤٨ - ١٧٤٩ ميلادية). وبعدما توفي شالابي خان عام ١٧٥٥ فقدت الخانية قوتها نتيجة للمعارك التي استمرت بين الإقطاعيين من أجل الحكم.

وكان بناح علي خان مؤسس خانية قاراباغ من طائفة جاوان شيريين قد أنشأ صلات تقارب مع جماعة جار، وبنى قلعة كبيرة قرب شوشاكاند خوفاً من هجمات من كان يدعى مقام شاه في إيران وهجمات الخانات الأذربيجانيين

على قاراباغ. وقد سميت القلعة أولاً باسم بناح آباد، ثم سميت باسم شوشا. وتوفي بناح علي خان أسيراً، فخلفه على الخانية ولده إبراهيم خليل خان.

اتسعت مساحة الخانية خلال حكم هذا الأخير اتساعاً ملحوظاً، فقد انتهز ظروف الوضع الناشئ في المنطقة عند انتقال الحكم إليه، فاستولى على بعض الخانيات التي امتنعت عن قبول خانيته.

أما خانية قوبا التي قامت منذ بداية القرن الثامن عشر فقد انتهز حاكمها حسين علي خان فرصة ضعف الحكم في إيران فأعلن استقلاله التام. وفي أواخر عمره ألحق مدينة ساليان بخانيته. وتولى بعده ابنه فتلي خان حكم منطقة قوبا (١٧٥٨ - ١٧٨٩). وكان هذا من أبرز رجالات الدولة في أذربيجان، فبعد أن عزّز خانيته عمل على توحيد جميع أراضي أذربيجان من حوله، وقد اتسعت دولته في الثمانينات من القرن الثامن عشر، فضمت شاماخي ودربند وباكو وشاكي وطاليش وبعض إقطاعات من داغستان.

وبعدما توفي فتلي خان عام ١٧٨٩ لم يستطع أولاده الذين حكموا بعده وقاية وحدة الدولة التي أقامها والدهم، وانفصلت عن خانية قوبا جميع الخانيات التابعة لها.

وفي أواخر القرن الثامن عشر استولى آغا محمد شاه قاجار على الحكم في إيران، فضم جميع خانيات أذربيجان الجنوبية لنفسه، ونقل مركز الدولة إلى طهران، وبعدما انتهى من المناطق الجنوبية أخذ يحتل الخانيات الشمالية، وخانيات القوقاز الجنوبية كافة. وجمع جيوشه في بداية صيف عام ١٧٩٥ وزحف إلى ماوراء القوقاز وهو يدمر تدميراً شاملاً جميع القرى والمناطق

السكنيَّة الواقعة على طريقه.

وقد أزعجت الأحداث في القوقاز الجنوبية قيصر روسيا الذي تحسن وضعه السياسي والذي كان من أهدافه المستمرة احتلال القوقاز، فأرسل جيشاً من ثلاثين ألف جندي بقيادة الجنرال فاليريان زوبوف، وصل دربند في أبريل / نيسان عام ١٧٩٦ وخاض معركة ضد جيش خانية قوبا وعدده ألفا جندي، واحتلت الجيوش الروسية دربند، فبعث حكام خانيات طاليش وشاماخي وكانجا ويروان وناخجيوان وباكو وخوي وقاراباغ إلى الجنرال زوبوف بقبولهم الحكم الروسي.

لكن قيصر روسيا بافيل الأول الذي وصل إلى الحكم بعد وفاة الملكة كاترينا الثانية عام ١٧٩٦، قرر توجيه جميع قواه ضد فرنسا، فأمر الجيوش الروسية في القوقاز بالعودة، فخلا الجو لآغا محمد شاه مرة أخرى، فتغلغل في أذربيجان بجيش كبير، واحتل قارباغ ونهب سكانها، إلا أنه لم يستطع هذه المرة احتلال أذربيجان كلها، إذ مالبث أن قتل غيلة في مدينة شوشا، وتشتت الجيوش الايرانية لغياب القيادة.

ولئن تعرضت أذربيجان إلى الاحتلال في القرن الثامن عشر إلا أن لغتها الأم وأدبها كانا متحررين من المؤثرات الخارجية، كما تشبع أدبها بروح الإبداع الشعبي. وقد طوَّر شعراء هذا القرن النماذج الأدبية لمحمد فضولي، وكتبوا نصوصاً جديدة في الأدب، وظهر منهم بيشات الشيرواني، وشاكر الشيرواني، وعارف الشيرواني وعارف التبريزي وآغا مسيح الشيرواني، وخسته قاسم، ونبي شاكيلي وعشرات غيرهم من البارزين. وكان من أشهر

شعراء هذا القرن ملا ولي ودادي، وملا بناح واقف، وقد اتسم شعر هذا الأخير بالتجديد، واستطاع أن ينقي شعره من المؤثرات الخارجية على اللغة الأذربيجانية.



الفصل السادس

أذربيجان الشمالية
قبل الاحتلال الروسي وبعده

أذربيجان الشمالية قبل الاحتلال الروسي وبعده

بدأت روسيا القيصرية تخطط لغزو القوقاز الجنوبية من بداية القرن التاسع عشر، وفي ربيع عام ١٨٠٣ عبرت قواتها نهر ألازان (قانيق)، فهزمت جماعة شاربالاكان قرب مركز بالاكان، ودمرته تدميراً كاملاً. ثم تحركت في نهاية عام ١٨٠٣ نحو مركز كانجا، فاحتلته بعد معركة دامية، جرت ليلاً من الثاني إلى الثالث من يناير / كانون الثاني عام ١٨٠٤.

وفي ١٤ مايو / أيار ١٨٠٥ وقَّع الجنرال سيسيانوف القائد العام للجيش الروسي وحاكم خانية قاراباغ إبراهيم خليل خان معاهدة «كوراك جاي» التي فرضت على هذا الأخير قبول الحكم الروسي، وبعد أسبوع اضطر حاكم شاكي أيضاً أن يحذو حذوه.

وأزعج الاحتلال الروسي لبلاد القوقاز الجنوبية شاه إيران الذي مازال يحلم بالاستيلاء على هذه الأراضي، فجهز جيوشه لحرب الروس، وقامت أول معركة بين الطرفين عام ١٨٠٤، وامتدت الحروب أعوامًا، نتهت بتوقيع معاهدة بين الطرفين في قرية غلوستان التابعة لقاراباغ يوم ١٣ أكتوبر / تشرين الأول عام ١٨١٣، ضمت روسيا بموجبها جميع الخانيات الواقعة شمال نهر أراز ماعدا إيراوان، وناخجيوان. والخانيات المضمومة هي كانجا وقاراباغ وشاكي ولانكران وشاماخي وباكو وقوبا ودربند.

ولم يكن شاه إيران الذي اضطر إلى توقيع معاهدة غلوستان راضياً بفقد القوقان، وبقي يتحفز، حتى وجد الفرصة سانحة، فدفع بستين ألف جندي إلى الأراضي الشمالية لأذربيجان في يوليو / تموز عام ١٨٢٦، لشن حرب ثانية ضد الروس، انتهت بمعاهدة سلام وقّعها الطرفان في قرية توركمان جاي جنوب مدينة تبريز في ١٠ فبراير / شباط ١٨٢٨، قضت أن تخرج الجيوش الروسية بموجبها من أذربيجان الجنوبية، على أن تبقى في إيراوان وناخجيوان.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن بعض الباحثين والسياسيين لايزالون يعتقدون إلى اليوم أن للاحتلال الروسي جوانب إيجابية، ولم ينظر هؤلاء إلى أن الشعب الأذربيجاني فقد استقلاله، وانقسم إلى قسمين، يختلف بعضهما عن بعض في تطوره الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والثقافي، وأن أذربيجان غدت مصدر مواد خام لأغنياء روسيا وسوقاً لبضائعها، وغدا اقتصاد البلاد اقتصاد مستعمرة تابعة، تخضع للاستغلال الاقطاعي وترزح تحت وطأة الضرائب الثقيلة، مما أدى إلى حدوث انتفاضات شعبية.

فقد اشتعلت ثورة ضد الظلم الروسي في كانجا عام ١٨٢٦، قمعها الروس بلا رحمة، وقامت انتفاضة في جاربالاكان عام ١٨٣٠. وأكبر الثورات كانت في مدينة قوبا عام ١٨٣٧، خطط لها المثقفون ورجال الدين، وأوقدوا نارها. كما نظمت المظاهرات ضد الاستعمار والاقطاع في مناطق عدة من أذربيجان خلال الثلاثينات من القرن التاسع عشر، أسكتت كلها بقسوة وعنف.

ألغت الحكومة القيصرية النظام الإداري الخاني، وأخذ ضباط الجيش برتبة

كوميندان يديرون الخانيات السابقة، وجمعت تحت أيديهم شؤون الحكم والسلطة، فجعلوا ينهبون الأهالي، مما دفع هؤلاء للقيام بثورات جديدة ضدهم. كما أن الإقطاعيين الذين اعتمدهم القيصر في عدد من الأماكن لم يكونوا راضين عن الكوميندانات، فأصدرت الحكومة عام ١٨٤٠ قانوناً لضبط الأحوال فيما وراء القوقاز، ألغت فيه نظام حكم الكوميندانات، وأقامت الأقضية في المحافظات، وقسمت مناطق ماوراء القوقاز إلى محافظات إمبراطورية، مركزها مدينة تفليس، وأحدثت ولاية كاسبي وجعلت مركزها شاماخي. وقد تبع هذه الأخيرة أوردوباد وأراضي أذربيجان الشمالية سوى يليزاوتبول وبالاكان التي ألحقت بمحافظة الامبراطورية الجورجستانية. ثم استبعدت الحكومة القيصرية جميع المأمورين الأذربيجانيين، واستبدلت بهم مأمورين من الروس.

وفي السادس من ديسمبر / كانون الأول سنة ١٨٤٦ صدر قانون إعادة حقوق الملكية وأرباب العمل، بغرض تكوين قاعدة اجتماعية للحكم الروسي في أذربيجان، وصُدّقت بهذا القانون حقوق أصحاب الأراضي، من تملك وبيع وإهداء وتصرف.

وبدأت في النصف الأول من القرن التاسع عشر مرحلة جديدة في مجال التربية والتعليم، إذ دخلت فيه إصلاحات جذرية. وقد استطاع الأذربيجانيون الاستفادة من المنجزات الثقافية لشعوب العالم، كما استطاعوا تطوير منجزاتهم الثقافية بالاستناد إلى روح العادات والتقاليد القومية.

واشتهر في مجال التعليم والتنوير رجال أكفياء، مثل باكيخانوف وقاسم باي ذاكر وغيرهما، عملوا على العناية بالتعليم ورفع مستوى الشعب الثقافي،

وكانوا يدركون أن الحكومة القيصرية ترغب إبقاء الجماهير على أميتها، لتكون تابعة لها. ولذا فهي لاتهتم بتنويرها.

وكان في أذربيجان خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر مدارس علمية ودينية في المساجد، تمثل المراكز التعليمية الأساسية، وفيها قرأ كثير من رجال العلم والثقافة. وبعد إلحاق البلاد بروسيا ونتيجة لسعي المتنورين الأذربيجانيين افتُتحت سلسلة من المدارس الروسية، بدأت في الثلاثينات من القرن المذكور في مدن شوشا وشاكي وباكو وكانجا وشاماخي وناخجيوان، كان يتعلم فيها أبناء الأغنياء خاصة، تدرّس بها اللغتان الأذربيجانية والروسية ومواد التاريخ والجغرافية والشريعة الإسلامية.

وفي الثلاثينات من القرن المذكور كذلك ظهرت الصحف الأذربيجانية، أولها جريدة «تتار لاري» (أخبار التتر) الأسبوعية التي صدرت في تفليس عام ١٨٣٢.

وتطور الأدب الأذربيجاني آنذاك في الاتجاهين الرومانسي والواقعي، مثّل الاتجاه الأول عشرات من الشعراء، كانوا ينشرون الأفكار الدينية مرتبطين بالايديولوجية الإقطاعية. في حين مثل الاتجاه الواقعي الشعراء التقدميون، منهم أخوندوف وباكيخانوف وميرزا شفيع وازه وقاسم باي ذكر، وهؤلاء أثروا الأدب الأذربيجاني بمؤلفاتهم.

أما الموسيقى الأذربيجانية الشعبية والفنون التصويرية والتطبيقية والمعمارية فكانت تتطور في خطوات حثيثة.



الفصل السابع

أذربيجان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر

أذربيجان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر

تميزت الخمسينات والستينات من القرن التاسع عشر بالتدهور الاجتماعي والاقتصادي للإقطاع، إلى جانب تطور الرأسمالية الحديثة التي عمل الإقطاعيون في روسيا وأذربيجان على عرقلتها. وقد صدر قانون ١٤ مايو / أيار عام ١٨٧٠ حول وضع أراضي القرى الحكومية، حيث تسكن الطبقة العليا من المسلمين، وكذلك أراضي ملوك الأرمن. وبموجب هذا القانون تحرر الفلاحون من التبعية لملاك الأرض وأعطي كل فلاح بلغ الخامسة عشرة نصف هكتار، وخوله القانون إمكانية شراء الأرض التي يعمل بها. لكن غالب الفلاحين لم يكونوا قادرين على دفع المال، فبقيت الأراضي في حوزة أصحابها الأولين.

وفي ذلك الوقت قامت في أذربيجان إصلاحات قضائية وإدارية في المدن والقرى. وكانت هذه الإصلاحات تهدف إلى تحقيق غرض واحد هو تعزيز الحكم الاستعماري دون النظر إلى الجوانب القومية والمعيشية والاقتصادية للسكان. وكانت المناصب الأساسية بيد الموظفين الروس.

هذا وقد أعطى تحقيق الإصلاحات الخاصة بالأراضي قوة دفع لتطور القوى الانتاجية، فتشغيل السكة الحديدية بين باكو وروسيا عام ١٩٠٠ أثر على التطور الاقتصادي للبلاد. كما أن اتساع المدن وازدياد عدد السكان في

النصف الثاني من القرن التاسع عشر دفع بقوة لتطوير زراعة القمح والرز في أذربيجان. حتى إن إنتاج القمح والشعير احتلا المكان الأول من الانتاج الزراعي. واهتم الفلاحون بإنتاج الحرير الطبيعي المهنة التقليدية التاريخية في البلاد، هذا وإن التطور السريع لصناعة الغزل والنسيج في روسيا أدى لازدياد الحاجة إلى القطن الذي تطورت زراعته جنباً إلى جنب مع زراعة التبغ.

وقد ساعد الوجود الاستعماري على نمو الروح القومية في قرى أذربيجان كما كان الكفاح يشتد ضد الظلم الإقطاعي، وكانت حرب العصابات هي النوع الأكثر انتشاراً في الربع الأخير في القرن التاسع عشر، واشتهر في هذا المجال بين صفوف الشعب أسماء مثل قاجاق كرم وقاجاق نبي.

وتطورت الصناعة الأذربيجانية آنذاك تطوراً سريعاً، وكان إنتاج النفط من أهم الصناعات الوطنية وهذا بالتالي أدى إلى تطور المجالات الصناعية المتعلقة به وخاصة صناعة تكرير النفط التي ظهرت منشآتها في محافظات البلاد جنباً إلى جنب مع المنشآت القائمة في باكو. ومن الصناعات التي تطورت وانتشرت بوجود النفط صناعة الماكينات والمراجل البخارية والحبال الحديدية. وعلى إثر ذلك قامت سلسلة من المؤسسات الصناعية الرأسمالية في باكو والمحافظات.

وهكذا تهيأت الظروف الملائمة لتطور مناجم النحاس في كاداباي، وصناعة الحرير في شاكي وشوشا وأوردوباد، وصناعة حلج القطن في المحافظات، وهذه الصناعات كانت مرتبطة بمراكز إنتاج المواد الخام.

وقد سبب تطور الصناعة الرأسمالية وارتفاع بعض الصناعات إلى مستوى

المعامل والاصلاحات التي تحققت في مجال الزراعة وتغيُّر العلاقات بين الفلاحين وأصحاب الأراضي، سبب ذلك كله حدوث تغيرات جذرية في الهيكل الاجتماعي ونشوء طبقات المجتمع الرأسمالي كالبرجوازية وطبقة العمال.

وقد تمثلت البرجوازية الأذربيجانية في الصناعيين النفطيين، وأصحاب المعامل المهنية، والتجار وأصحاب العقارات والأملاك، وبعض السادة الذين اعتمدوا على اليد العاملة.

وقد أدى التطور الصناعي وتغيرات البيئة الاجتماعية وقيام المنشآت الاقتصادية في المناطق المختلفة وارتقاء وظيفة المراكز الثقافية إلى تشكل الشعب الأذربيجاني بوصفه أمة تعيش على أرض واحدة وتجتمع على ثقافة واحدة وتتكلم لغة واحدة، وتمر بظروف اقتصادية واحدة.

وكان نشوء الطبقة البرجوازية حدثاً مهماً في حياة الأذربيجانيين، مما دفع إلى نضوج الشعور القومي لديهم، وكان ذلك شرطاً ضرورياً لكفاحهم ضد الاستعمار من أجل الاستقلال.

ودعا بعض البرجوازيين الأذربيجانيين الشعب إلى الأخذ بالثقافة والتنوير منطلقاً من مفاهيم الحرية الليبرالية، وقامت بهذه المهمة جريدة «الضياء» (أطلق عليها كذلك اسم الضياء القوقازية وصدرت في مدينة تفليس منذ أواخر السبعينات). وقد اجتمع كل من أحمد باي آغاييف وعلي باي حسين زاده وعلي مردان باي طوبشوباشوف حول جريدة «كاسبي» لبث الأفكار المتحررة.

كانت ظروف العمال المعيشية في روسيا القيصرية صعبة جداً إذا ماقورنت بظروف العمال في البلاد الأوروبية، فلم يكن هؤلاء يحصلون على

حقوقهم، وكانت أوضاعهم الاقتصادية سيئة، يشيع بينهم الجهل ويعيشون منعزلين في مناطق بعيدة، كما كانوا يشعرون بالاضطهاد القومي.

وقد كافح العمال الأذربيجانيون ضد مستغليهم منذ بداية السبعينات والثمانينات، وأسس الديمقراطيون الاجتماعيون في مدينة باكو جمعيات لهذا الغرض، كما قامت جمعيات الديمقراطيين الاشتراكيين في باكو أيضاً بنشاطاتها عام ١٨٩٩، وكانت تتعاون مع جمعيات أخرى في مدن تفليس وباتوم وكوتائيسي مع جمعيات في روسيا وتتبادل معها الصحف والكتب الخاصة بالثورة.

وظهر الفكر الناضج عند عدد كبير من المثقفين الديمقراطيين في تلك الحقبة، وكانوا مسلحين بالآراء التقدمية الثقافية العالمية. وعلى أثر ذلك تطورت العلوم والآداب في أذربيجان، وظهرت أول مسرحية قومية وصدرت أول جريدة أذربيجانية عام ١٨٧٥ واسمها «أكينشي» (الفلاح). وكان يحررها وينشرها حسن باي زردابي أحد رجال التنوير والثقافة البارزين. وأنشئت آنذاك مكتبات عامة في مختلف أنحاء البلاد. وقد أسس ناريمان ناريمانوف عام ١٨٩٤ أول مكتبة جماهيرية (دار القراءة) في الجمهورية وكان مقرها باكو، وتسمى الآن مكتبة آخندوف.

واشتهر آنذاك من بين رجال العلم والتنوير والفكر والثقافة الشاعر الهّجاء سيد عظيم الشيرواني، وممثل التعليم الجماهيري سلطان مجيد غني زادة، وحبيب باي محمود بايوف ورشيد باي أفندييف. ومن بين رجال السياسة والاجتماع ناريمان ناريمانوف ومحمد أمين رسول زادة، (أول رئيس لجمهورية

أذربيجان الديمقراطية ١٩١٨) وأحمد حسين زاده، وأ. ب، آغاييف، والكاتب الهجّاء جليل محمد قولوزادة وآخرون. ومن الذين أبدعوا في ذلك العهد الشاعرة الأذربيجانية البارزة خورشود بانو ناتاوان (١٨٣٠ - ١٨٩٧). أول شاعرة أذربيجانية.

الفصل الثامن

أذربيجان في السنوات العشر الأولى
من القرن العشرين

أذربيجان في السنوات العشر الأولى من القرن العشرين

كانت الرأسمالية في روسيا تتطور بسرعة فائقة، ووصلت إلى ذروة هذا التطور في أواخر القرن التاسع عشر، وكانت روسيا تنظر إلى المناطق البعيدة لتفرض عليها سيطرتها الاقتصادية، وتستغل موادها الخام، وتتركها في وضع متخلف.

وزادت ظروف العمل في المؤسسات سوءاً خلال الأزمة التي قامت بين عامي ١٩٠٠ و ١٩٠٣ فوصلت فترة العمل اليومية إلى إحدى عشرة ساعة أو اثنتي عشرة، وانخفضت الأجور إلى الحد الأدنى، وصارت ظروف العمال المعيشية سيئة جداً. ولم تكن أحوال الفلاحين أحسن منها، إذ كان هؤلاء يتعرضون لاستغلال أصحاب الأملاك والسماسرة الذين تركزت الأراضي وأدوات الإنتاج الزراعي في أيديهم، بينما حُرم الفلاحون منها، خاصة وأنهم كانوا يُنقلون من منطقة إلى أخرى. وازداد الانقسام الطبقي في الأرياف ازدياداً هائلاً.

هذه الظروف أدت إلى نشاط الديمقراطيين الاجتماعيين نشاطاً ملحوظاً في باكو عام ١٩٠٠، وأنشئت أجنحة لهم في ربيع عام ١٩٠١، واتسعت الحركة العمالية خلال هذه الفترة، وقامت مظاهرات عمال باكو التي ساعدت على اتساع الكفاح الطبقي في المحافظات الأذربيجانية، وازدادت محاولات الامتناع عن دفع الضرائب، وكذلك اغتصاب الأراضي من أصحابها الأغنياء.

واتسعت الحركة التحريرية القومية ومظاهرات العمال والفلاحين اتساعاً ملحوظاً خلال سنوات الثورة الروسية الأولى. ولما وقعت أحداث يوم ٩ يناير / كانون الثاني عام ١٩٠٥ في مدينة بتروغراد (بطرسبرغ) أعطت قوة دفع لحركة جماهير العمال في روسيا بأجمعها.

وأزعج توسع الحركة الثورية في أذربيجان الدوائر القيصرية، فعملت هذه على إثارة الفتن بين القوميات، مما أدى إلى صدامات دموية في باكو خلال شهر فبراير / شباط من عام ١٩٠٥، لكن الحكومة الروسية اضطرت تحت ضغط الحركة الشعبية القوية إلى إصدار بيان حكومي، وعدت فيه بإعطاء الحريات المختلفة كحرية الصحافة والكلمة والمظاهرات، وقد استقبلت البرجوازية الأذربيجانية والرأسماليون الروس هذا البيان باهتمام خاص.

وعلى أثر ذلك ظهرت في البلاد أحزاب سياسية مثل «حزب الدستور الإسلامي» و «حزب الدفاع» وغيرهما. وحدثت مظاهرات حاشدة في باكو والمدن الأذربيجانية، كان أشدها مظاهرات شهري نوفمبر وديسمبر / تشرين الثاني وكانون الأول، وأسست «لجنة مفوضي العمال والفلاحين» في شتى أنحاء روسيا، وهي نوع جديد من المنظمات السياسية. وانتخبت لجنة من ٢٢٦ عاملاً تمثل عمال باكو في الاجتماع العام لممثلي لجان المعامل والمصانع المنعقد في ٢٥ نوفمبر / تشرين الثاني.

لكن الحركة الثورية أخذت في التراجع بعد أن أخذت الدوائر الحكومية القيصرية بتعزيز هجماتها على الثوار لقمع الانتفاضات المسلحة في موسكو والمدن الروسية، وألغيت «لجنة ممثلي باكو». إلا أن المظاهرات الفلاحية في

غالب محافظات أذربيجان لم تتوقف خلال التراجع العام للحركة الثورية. وفي ربيع عام ١٩١٠ بدأ إضراب عمال روسيا مرة أخرى.

وكانت هذه الفترة مرحلة انتعاش في شتى المجالات الانتاجية، وانتشر آنذاك استعمال المحركات الكهربائية ومحركات الاحتراق الداخلي في صناعة النفط ، وكانت الصناعة آخذة بالتطور في المحافظات البعيدة عن المراكز، وكان ربع انتاج النحاس في روسيا يستخرج من أذربيجان، وتطور صيد الأسماك وكان يعمل في مؤسسات الصيد أكثر من أربعين ألف عامل. وقامت مصانع لف الحرير في مدن شاكي وشوشا وأوردوباد، وكادت منشآت حلج القطن تصل إلى مستوى المعامل. وكان ذلك كله نتيجة لارتفاع عدد السكان في المدن واتساعها، فقد تضاعف السكان مرتين بين عامي ١٩٠٦ و ١٩١٦ حتى بلغ تعداد قسم منها نحو ٥٧٣ ألف نسمة. وتطور الإنتاج الزراعي كالعنب والقطن، وزاد انتاج البضائع الرأسمالية كالحرير ازدياداً ملحوظاً جداً.

ولما قتل بعض العمال الروس في مناجم الذهب بمنطقة لينا السيبيرية في شهر إبريل / نيسان من عام ١٩١٢ نشطت الحركة العمالية الأذربيجانية وكانت حركة التحرر القومية تنصح بقيام حركة فلاحية في ريف أذربيجان للحصول على الأرض، وكانت هذه الحركة تتحقق تحت قيادة البرجوازية الوطنية.

وفي عام ١٩١١ أسس مثقفو أذربيجان «حزب المساواة». ثم اتسعت الحركة العمالية في عامي ١٩١٣ و ١٩١٤ اتساعاً بيناً، وبدأ إضراب شامل في

باكو عبّر عن الوحدة الكاملة للعمال.

وحينما بدأت الحرب العالمية الأولى في شهر يوليو / تموز عام ١٩١٤ تصادمت مصالح الحلفين الاستعماريين المتوجهة إلى اعادة تقسيم العالم لمصلحة جميع الدول، وقد أثرت الحرب على اقتصاد أذربيجان تأثيراً شديداً فازدادت ظروف الكادحين المعيشية سوءاً، وظهر التأثر بوضوح في صناعة النفط قبل كل شيء، كما تأزمت أحوال الزراعة.

في ذلك الوقت نشطت منظمة «همّت»، التي أنشأت فروعاً لها في مناطق باكو الصناعية ومحافظات شاماخي وكانجا وقوبا وساليان وغيرها من المحافظات الأخرى.

وكانت بداية القرن العشرين فترة تطور سريع للثقافة الشعبية في أذربيجان، وبرغم الظلم الاستعماري القومي فقد ظهر نشاط الثوريين الأذربيجان من أمثال حسن زردابي وعُزير حاجرباكوف وس. غني زادة وغيرهم من رجال التنوير الذين كانوا يجهدون من أجل توسيع شبكة التعليم الشعبي لمكافحة الأمية التي كانت سائدة آنذاك.

وتطور نشاط الصحافة تطوراً مهماً بسبب نشاط الحياة الاجتماعية والسياسية الأذربيجانية خلال الحرب العالمية الأولى، وصدرت مابين سنوات ١٩٠٤ و ١٩٠٨ الجرائد التالية باللغة الأذربيجانية : «همّت» و «دعوة قوج»، و«تكامل»، و«يولدش»، إضافة إلى عدد من الصحف صدرت بالروسية والأرمنية، وهي «باكينسكي رابوتشي»، و «غودوك»، و «بريزيف»، و «وانووري دزيان»، و «أورير» وقد أدى ازدياد الصحف الثورية الديمقراطية إلى تطور مهم

في الفكر الاجتماعي والسياسي الأذربيجاني. ففي عام ١٩٠٦ صدرت مجلة «ملا نصر الدين» وهي مجلة نقدية ثورية، وكان يحررها جليل محمد قولوزادة، وكان من كتابها ميرزا علي أكبر صابر، وعبد الرحيم حق ويرديف وعلي قولو قام كُسار. ثم صدرت سلسلة من المجلات مثل «بهلول»، و«توتي»، و «زنبور» و «باباي أمير» وغيرها، كما زاد عدد الصحف البرجوازية، منها «شرقي روس»، و «إرشاد»، و«نجاة» وغيرها، وصدرت جريدتا «كاسبي»، و «باكو» بالروسية. واشتهر من رجال الفكر التحرري القومي آنذاك علي باي حسين زادة، ومحمد أمين رسول زادة، وأحمد باي آغاييف.

وتطور الأدب الثوري الديمقراطي في أوائل القرن العشرين بأذربيجان تطوراً كبيراً، وكان يمثل هذا الاتجاه جليل محمد قولوزادة، وميرزا علي أكبر صابر، وناريمان ناريمانوف، وعبد الرحيم حق ويرديف. أما ممثلو الاتجاه الواقعي لهذا الأدب فكانوا يقومون بالدعوة إلى الاصلاح والتنوير، ومن هؤلاء نجف باي وزيروف، وسليمان ثاني أخندوف، وس. غني زادة، ويوسف وزير (شمن زمنلي)، و عبد الله شائق.

وتقدمت المسرحية الأذربيجانية خطوات هامة، واشتهر من المسرحيين أمثال ج. زينالوف، وعربلينسكي، وم. عليف، وحسن سارابسكي، وشريف زادة، وصدقي روح الله، وكان هؤلاء يؤصلون التقاليد الواقعية للمسرح ويطورونها.

وقد أغنت الموسيقا الأذربيجانية مؤلفات جديدة باهرة، أبدعها كبار الموسيقيين من أمثال عُزير حاجيبايوف، ومسلم ماغومايف، وجبار قارياغدي،

وحسن سارابسكي، وقربان بيريموف وغيرهم. وتأسس فن الأوبرا مع عرض مسرحية «ليلى والمجنون» لعزيز حاجيبايوف عام ١٩٠٤م.

وعندما انتصرت الثورة البرجوازية الديمقراطية عمّ خبرها سريعاً جميع أنحاء روسيا، وبدأت البرجوازية الأذربيجانية تقوم بفعاليات مكشوفة، فأخذت تعبئ جماهير العمال للحركة الثورية. وقامت مظاهرات شعبية في شتى المراكز مثل باكو وكانجا وشاكي ولانكران وزاقاتالا وناخجيوان وغيرها. وألفت «لجنة ممثلي عمال باكو» وقامت لجان في المدن الأذربيجانية الأخرى، وألغيت الدوائر الإدارية القيصرية، وأنشئت ميليشيات العمال، وصدرت جريدة «أخبار» لسان حال لجنة ممثلي العمال والعسكريين في باكو الأذربيجانية والروسية والأرمنية.



الفصل التاسع

جمهورية أذربيجان الديمقراطية

جمهورية أذربيجان الديمقراطية

بعد ثورة فبراير عام ١٩١٧ ألفت في روسيا لجنة خاصة بمناطق ماوراء القوقاز، لم تعمر طويلاً، قامت بعدها الجمهورية الديمقراطية الاتحادية لمناطق ماوراء القوقاز. وفي ٢٨ مايو / أيار عام ١٩١٨ نشأت جمهورية أذربيجان الديمقراطية، نتيجة لجهود محمد أمين رسول زاده وغيره من أبناء البلاد البواسل. وقبل هذا أسست لجنة باكو، وكان من واجبها الأساسي إلحاق الأراضي الساحلية لبحر الخزر ببلاد روسيا السوفييتية. وقد أنجزت اللجنة عملها في ٣١ يوليو / تموز ١٩١٨. هذا وقد نقلت عاصمة الجمهورية من كانجا إلى باكو في سبتمبر / أيلول من العام نفسه، وبسطت سلطتها على مناطق أذربيجان كافة.

أما القوات التركية التي جاءت لتقديم المساعدة فقد اضطرت للانسحاب بعد هزيمة تركيا في الحرب العالمية الأولى، في حين دخلت جيوش انكلترة باكو في ١٧ نوفمبر / تشرين الثاني. ولم يعترف قائد هذه الجيوش بالحكومة الوطنية، لأنه كان يعد أذربيجان وماوراء القوقاز كلها جزءاً من الأراضي الروسية. وإضافة إلى هذا كانت الجيوش التابعة للجنرال بيشاراخوف تتغلغل في أذربيجان، وتقوم العصابات الأرمينية التابعة لحزب داشناق بمناوشات داخل باكو، ومع هذا فقد كانت الحكومة الوطنية تواصل نشاطها. وبدأ البرلمان عمله في ٧ ديسمبر / كانون الأول، وأسست حكومة جديدة برئاسة

فتلي خان خويسكي، واستطاع الأذربيجانيون أن يطردوا وحدات عسكرية روسية وأرمنية من باكو، كما اضطر الانكليز لترك المدينة في بداية شهر أبريل / نيسان عام ١٩١٩.

وإذ ذاك اقتربت جيوش الجنرال دينيكين من الحدود الشمالية لأذربيجان، وكانت تقاتل من أجل «روسيا واحدة لاتتجزأ»، ووقعت الحكومة الأرمنية معه اتفاقية سرية، وجمعت قواتها باتجاه قاراباغ وديليجان، فيما دفعت روسيا السوفييتية الحكومة الأذربيجانية إلى القتال ضد قوات دينيكين في يناير / كانون الثاني عام ١٩٢٠.

ولما عقد مؤتمر السلام في باريس بعد الحرب العالمية الأولى قررت الحكومة الوطنية الاشتراك فيه والعمل على اعتراف أوربا باستقلال أذربيجان، ودعيت لحضور اجتماع المجلس الأعلى للمؤتمر في ١٩ يناير / كانون الثاني من عام ١٩٢٠.

كانت الجيوش السوفييتية التي تقاتل ضد دينيكين متركزة في القوقاز الشمالية، وتتقدم نحو الجنوب، وكان الشيوعيون الأذربيجانيون يحثون السوفييت للاستيلاء على بلادهم، وقد زاد نشاطهم ضمن هذا الاتجاه بعد تأسيس الحزب الشيوعي الأذربيجاني في ١١ فبراير / شباط عام ١٩٢٠، وقد رفعوا شعار «أذربيجان السوفييتية المستقلة» وقرروا تنفيذ انقلاب حكومي، وتوجهوا إلى مفوض الشؤون الخارجية الروسي، يطلبون منه أن تعترف روسيا السوفييتية بجمهورية أذربيجان الديمقراطية، وكان فلاديمير لينين آنذاك يكتب حول ضرورة احتلال باكو بلاد النفط.

وخلال عيد النوروز قامت الوحدات التابعة للجيش الأحمر وقوامها ٧٢ ألف جندي بالتجمع على ضفاف نهر سامور، في الوقت الذي بدأ فيه القتال في قاراباغ، فاضطرت الحكومة الوطنية لتحريك جيشها إلى ذاك الاتجاه. ومالبث الجيش الأحمر أن عبر النهر ليلاً في ٢٦ و ٢٧ أبريل / نيسان وتقدم سريعاً نحو الجنوب، فاضطر البرلمان الأذربيجاني إلى الاستقالة ليلة ٢٧ أبريل / نيسان، ودخل السوفييت باكو، وسيطروا على أذربيجان الشمالية. وانتهت الجمهورية الأذربيجانية الديمقراطية بعدما استمرت ٢٣ شهراً.

الفصل العاشر

أذربيجان ضمن اتحاد الجمهوريات السوفييتيـة الاشتراكيـة

أذربيجان ضمن اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية

خلال مدة يسيرة وبالرغم من المقاومة الشديدة سيطر السوفييت بمساعدة الجيش الأحمر على أراضي أذربيجان، وشُكلت لجان العمال والفلاحين التابعة للحكم البلشفي، التي جاءت بديكتاتورية البروليتاريا.

صودرت الأراضي من أصحابها الأغنياء في مايو / أيار ١٩٢٠ ووزعت على فقراء الفلاحين، وأممت صناعة النفط والبنوك، ووضعت الدولة يدها على الغابات والمياه والثروات الطبيعية والأسماك وأسطول بحر الخزر التجاري. وفي سبتمبر / أيلول ١٩٢٠ قام اتحاد عسكري اقتصادي بين روسيا الفدرالية الاشتراكية وجمهورية أذربيجان السوفييتية الاشتراكية، وانضمت أذربيجان إلى روسيا رسمياً بموجب اتفاقية خاصة. ولما سيطر السوفييت على أرمينيا (٢٩ نوفمبر / تشرين الثاني عام ١٩٢٠) وجورجستان (٢٥ فبراير / شباط عام ١٩٢١) انفتحت أمامهم آفاق واسعة لتحقيق مخططاتهم الاستعمارية فيما وراء القوقاز، وقامت بذلك الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية لمناطق ماوراء القوقاز في ١٠ ديسمبر / كانون الأول عام ١٩٢٢.

أخيراً قام اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية في ديسمبر / كانون الأول عام ١٩٢٢ مستنداً إلى امبراطورية جديدة تحكمها روسيا، وألحقت أذربيجان وجمهوريات ماوراء القوقاز بذلك الاتحاد.

عمدت روسيا إلى إنشاء بؤرة للصدامات القومية الدائمة من أجل الحفاظ على بلاد القوقاز المركزية بأيديها، فألحقت مناطق زنغازور وديليجان وكويجا الأذربيجانية بجمهورية أرمينيا السوفييتية، وأراضي بورشالي الأذربيجانية بجمهورية جورجستان السوفييتية (ديسمبر / كانون الأول عام ١٩٢٠) وأنشئت في ٧ يوليو / تموز عام ١٩٢٣ ولاية قاراباغ الجبلية، وجعل فيها حكم ذاتي من خلال التبعية لجمهورية أذربيجان السوفييتية. وبقيت أراضي ناخجيوان داخل جمهورية أذربيجان، ثم تحولت إلى جمهورية ناخجيوان السوفييتية الاشتراكية، وصار الحكم فيها ذاتياً محلياً بتاريخ ٩ فبراير / شباط عام ١٩٢٤ وظلت تتبع أذربيجان.

وبالرغم من الادارة المستبدة القوية في جمهورية أذربيجان السوفييتية الاشتراكية حيث تسيطر قوميات أجنبية فإن الكفاح الشعبي من أجل الاستقلال كان يظهر بشكل أو بآخر على الدوام. وكان يرأس هذا الكفاح منظمات حزبية سرية مثل المكتب الخارجي لحزب المساواة، وأشرف عليه شخصياً محمد أمين رسول زادة. وقد حدثت ٥٤ انتفاضة مسلحة بين عامي ١٩٢٠ و ١٩٢٤.

وكانت روسيا من أجل تعزيز قاعدتها الاقتصادية في أذربيجان تطور جانباً واحداً من اقتصاد هذه الجمهورية. وكانت تتبع سياسة التصنيع والإنشاء الإجباري للمزارع المشتركة (كولخوزات). وقد تشكلت القاعدة المادية خلال أعوام التصنيع لاكتشاف ثروات أذربيجان الطبيعية ونهبها دون رحمة. كما تم توحيد الفلاحين نتيجة بناء المزارع المشتركة وحرمانهم من

أراضيهم الخاصة، وألغيت الأملاك الكبيرة والمتوسطة، وأسكتت جميع الانتفاضات الشعبية التي قامت ضد هذا الظلم في شاكي وشاماخي وناخجيوان وغيرها. وكانت الإمبراطورية السوفييتية بالجملة تسعى لمحو الأصالة التاريخية للشعب الأذربيجاني وقطع جذوره القومية، وكانت تلك غاية التعليم العام وإنشاء المؤسسات التعليمية العالية والمتوسطة وتطوير الفنون. ولكن هذه الغاية هي التي أدت لتطوير العلم والثقافة وتأهيل الكوادر الوطنية في البلاد.

ولما قامت الحرب العالمية الثانية كان للأذربيجانيين أثرهم في تحقيق النصر على ألمانيا الفاشية بين عامي ١٩٤١ و ١٩٤٥، وكان منهم فرق الرماية الوطنية ذات الأرقام ٤٠٢ و ٢٢٣ و ٤١٦ و ٢٧١، وشارك منهم أكثر من ٦٠٠ ألف رجل وامرأة، قتل مايزيد عن نصفهم في المعارك الدموية. وكانت باكو أحد مصادر تسليح الجيش السوفييتي، وقدم عمال النفط الأذربيجانيون إلى صندوق الدفاع ٧٥مليون طن من النفط، منها ٢٢ مليون طن من البنزين والزيوت وكان ٩٠٪ من وقود الطائرات والصواريخ الحربية من أذربيجان.

ولكن دولة الاتحاد السوفييتي التي خرجت من الحرب العالمية الثانية منتصرة زادت من استغلال شعوب المناطق الشمالية الغنية بالثروات الطبيعية من أجل الحفاظ على موقعها في الساحة الدولية وتوسيع النظام الاشتراكي.

وقد تطورت صناعة النفط بأذربيجان في تلك الفترة، وبدأ استخراجه من قاع البحر أول مرة في العالم، فأقيمت على أعمدة حديدية مدينة نفطية خيالية بنيت من الحجارة. كما تطورت مجالات الكيمياء والطاقة واستخراج المعادن

من المناجم تطوراً سريعاً، وظهرت في أذربيجان مدن صناعية مثل سومغاييت (الكيمياء) وسميت أحياناً مدينة الكيمياء، ومينغاشوير (محطة الكهرباء المائية) وعلي بايراملي (الكهرباء) وداشكاسان (الفولاذ). وبدأت الأراضي تتخصص بزراعة القطن. إلا أن كل هذه الثروات التي أنتجها الكادحون من أبناء الشعب لم تكن تصرف لرفع مستوى معيشتهم. مع أن تطورات التي تمت تحت الحكم السوفييتي، منها تشغيل الجزء الأول من ميترو الأنفاق في باكو عام ١٩٦٨.

ومع هذه التطورات فإن المؤشرات الاقتصادية الأساسية كانت آخذة في الانخفاض وانخفضت كذلك الانتاجية، في حين جعل السخط الشعبي يزداد يوماً بعد يوم، وإذذاك جاء ميخائيل غورباتشوف بسياسة إعادة البناء (البروستريكا) لإخراج الاتحاد السوفييتي من وضع الأزمة، وكان يستحيل الانتقال إلى الاقتصاد الحر دون تدمير النظام القديم، وقد أدت الإجراءات الجذرية المتخذة ضد النظام السياسي القائم على الهيمنة العسكرية، أدت إلى انقسام الشعب إلى جبهات متصارعة، وإلى حدوث صدامات قومية.

الفصل الحادي عشر

قيام جمهورية أذربيجان

قيام جمهورية أذربيجان

طرد جميع الأذربيجانيين بالقوة من أراضي آبائهم وأجدادهم في أرمينيا خلال المدة الواقعة بين عامي ١٩٨٦ و ١٩٨٨. وقامت الضغوط عليهم في ولاية قاراباغ الجبلية الخاصة بأذربيجان، مما دعاهم إلى القيام بالكفاح. وقد حدثت مظاهرات ضخمة واصلت الليل بالنهار في نوفمبر عام ١٩٨٨ على الساحة التي أطلق عليها اسم «ساحة الحرية» وكانت تسمى من قبل «ساحة لينين». إلا أن قيادة الجمهورية المعروفة بحبها لروسيا فرقت هذه المظاهرات، فانتقل الشعب من حركة النضال العفوية إلى تنظيم نفسه، فظهرت «الجبهة الشعبية الأذربيجانية» وخرجت إلى ميدان الكفاح، وكانت من أهم المنظمات السياسية التي تحولت إلى منظمة جماهيرية، وكان الحكم يخشى من تسلمها زمام القيادة، فعمل على اتخاذ تدابير لتفريق الشعب.

ولما طالب أهالي باكو باستقالة رئيس الجمهورية أياز مطلبوف قامت وحدات من الجيش السوفييتي بتطويق المدينة، أما الوطنيون الذين أقاموا الحواجز لإيقاف الوحدات العسكرية فقد باتوا ليلة ٢٠ يناير / كانون الثاني من عام ١٩٩٠ هدفاً لنيران الأسلحة الثقيلة، وسقط الحائط الدموي الذي أقاموه، مما زعزع إيمان الأذربيجانيين بموسكو، واشتد النضال من أجل الحصول على الاستقلال الوطني.

وهكذا وبناء على طلب القوى الديمقراطية صدر يوم ٣٠ أغسطس / آب

عام ١٩٩١ بيان سياسي حول إعادة الاستقلال الرسمي لجمهورية أذربيجان، وأعلن القانون الدستوري يوم ١٨ أكتوبر / تشرين الأول. وبدأت بذلك مرحلة تعزيز الاستقلال الوطني وهي مرحلة جديدة ومهمة في حياة الشعب الأذربيجاني.

المراجع والمصادر الأذربيجانية

أحمدوف ، ق. م. مدينة بيلقان في العصر الوسيط . باكو ، ١٩٧٩.

آخوندوف، ناظم . تاريخ قاراباغ . باكو ، ١٩٨٩.

إسماعيل، محمود . تاريخ أذربيجان . باكو ، ١٩٩٣.

أفاندييف ، أوكتاي . دولة أذربيجان الصفوية . باكو ، ١٩٩٣.

أونوالله ، ي. تاريخ مدينة تبريز من القرن الثالث عشر حتى السابع عشر . باكو ، ١٩٨٢.

باكيخانوف ، عباس قولو . غولو ستان إيرام . باكو ، ١٩٥١.

بونيادوف ، تيمور . حول تاريخ تطور الزراعة في أذربيجان . باكو ، ١٩٠٤.

بونيادوف ، تيمور . قصص في آثار أذربيجان . باكو ، ١٩٦٠.

بيرييف ، و. ز. أذربيجان خلال نزول دولة الهولاكيين . باكو ، ١٩٧٨.

طالب زاده ، إ. نظام الري في أذربيجان في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . باكو ، ١٩٨٠.

عليوف ، شاهين فرضي . أذربيجان في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. باكو، ١٩٨٣.

عليوف ، ف. م. مدن أذربيجان الشمالية . باكو ، ١٩٦٠.

كايانكاتوكلو ، موسى . تاريخ ألبانيا . باكو ، ١٩٩٣.

كويوشيف ، رشيد . علم الآثار الأذربيجاني . باكو ، ١٩٨٦.

محمدوفا ، ف. تاريخ أذربيجان السياسي وموقعها الجغرافي . باكو ، ١٩٩٣.

محمدوف ، رؤوف . قصة تاريخ مدينة ناخجيوان . باكو ، ١٩٧٧.
مخيتار ، جوش . تاريخ ألبانيا . باكو ، ١٩٩٣.
مصطفايف ، أ. ن. الثقافة المادية لشيروان . باكو ، ١٩٧٧.
موسوي ، ت. م. وثائق تاريخ باكو في العصر الوسيط . باكو ، ١٩٦٧.
نفيسي ، سعيد . بابك الخرمي . باكو ، ١٩٦٠.
هيئت ، جواد . الرؤية في تاريخ الأتراك وثقافتهم . باكو ، ١٩٩٣.
وليخانلي ، نائلة . السياح الجغرافيون العرب في أذربيجان من القرن التاسع حتى الثاني عشر . باكو ، ١٩٧٤.

المراجع والمصادر الروسية

إسماعيلوف ، محمود . الهيكل الاجتماعي والاقتصادي لأذربيجان في عهد الاستعمار . باكو ، ١٩٨٢.
بابايف ، إ. أ. مدن ألبانيا القوقازية منذ القرن الأول حتى القرن الثالث الميلادي . باكو ، ١٩٩٠.
بونيادوف ، ضياء . أذربيجان في القرن السابع والثامن والتاسع . باكو ، ١٩٥٧.
بيتروشيفسكي ، إ. ب. قصص في تاريخ الإقطاع بأذربيجان وأرمينيا منذ القرن السادس عشر حتى بداية القرن التاسع عشر . باكو ، ١٩٤٩.
جعفروف ، ي. ر. الهونيون وأذربيجان . باكو ، ١٩٨٥.

حسينوف، ر. المصادر السورية عن أذربيجان . باكو ، ١٩٦٠.

حيدروف ، خ. العلاقات الاجتماعية والاقتصادية داخل المنظمات المهنية في مدن أذربيجان من القرن الثالث عشر حتى السابع عشر . باكو ، ١٩٨٧.

رحماني، أ. تاريخ آلام آراي عباسي مصدراً في تاريخ أذربيجان. باكو ، د. ت.

عاشوربيلي ، سارة . تاريخ مدينة باكو . باكو ، ١٩٩٢.

عاشور بيلي ، سارة . دولة ملوك شيروان . باكو ، ١٩٨٣.

علي أوسط ، سومبا طزاده . أذربيجان : أصل الشعب ونشوءه . باكو ، ١٩٩٠.

علي زادة ، أ. أ. تاريخ أذربيجان الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في القرنين الثالث عشر والرابع عشر . باكو ، ١٩٥٦.

عليوف ، إقرار . أطروباتينة . باكو ، ١٩٩٢.

عليوف ، كمال . ألبانيا القوقازية في العهد القديم . باكو ، ١٩٩٢.

محمدوف ، س. أ. أذربيجان في مصادر القرن الخامس عشر والنصف الأول من القرن الثامن عشر . باكو ، ١٩٩٣.

ناريمانوف ، إ. ق. ثقافة السكان القدماء الزراعيين الرعاة في أذربيجان . باكو ، ١٩٨٧.

من منشورات مركز الدراسات الإسلامية

(إرشاد)

ـ الأمة والشعوب في الإسلام (بالأذربيجانية)	شكر الله باشا زاده (شيخ الإسلام)
ـ الإسلام والقومية والاشتراكية (بالروسية)	د . رفيق عليوف يحيى
ـ كتاب الحج (بالأذربيجانية)	أبو طالب محمدوف
ـ دليل الحج (بالأذربيجانية)	أبو طالب محمدوف
ـ الإسلام : تاريخه وفلسفته وعباداته (بالأذربيجانية)	عدد من الباحثين
ـ دراسات إسلامية (بالأذربيجانية والإنكليزية)	عدد من الباحثين
ـ ثلاث مئة سؤال في الإسلام (بالأذربيجانية)	محمد سعيد داغستاني
ـ زين الكاتب (بالأذربيجانية)	محمد سعيد داغستاني
ـ الله وصفاته (بالروسية)	السيد موسوي لاري
ـ النبوة في الإسلام (بالروسية)	السيد موسوي لاري
ـ الشباب والأخلاق (بالروسية)	السيد موسوي لاري
ـ الحضارة الغربية من الرؤية الإسلامية (بالروسية)	السيد موسوي لاري

من مطبوعات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

مرتبة وفق صدورها

مطبوعات ١٩٩٤

- رواة محمد بن إسحاق بن يسار في المغازي والسير وسائر المرويات : تصنيف مطاع الطرابيشي.
- الايجاز في آيات الإعجاز : أبو اليسر عابدين ، تحقيق محمد كريّم راجح.
- البلغة في أحاديث الأحكام مما اتفق عليه الشيخان : سراج الدين بن الملقن، تحقيق محيي الدين نجيب.
- كتاب الحيطان : المرجّي الثقفي ، تحقيق محمد خير رمضان يوسف.
  الإمام شمس الدين ابن الجزري : محمد مطيع الحافظ.
- المنتخب من مقتنيات معهد المخطوطات في باكو بأذربيجان : إعداد عبدالرحمن فرفور ، محمد مطيع الحافظ.
- نهاية المراد في شرح هدية ابن العماد : عبدالغني النابلسي ، تحقيق عبدالرزاق الحلبي.

MAN'S FREEDOM UNDER HIS SERVITUDE TO ALLAH: THIS IS ISLAM/ BY MUHAMMAD SA'ID RAMADAN AL-BOOTY; TRANSLATED BY ANAS RIFA'I.

مطبوعات ١٩٩٥

- ظفر الأماني في مختصر الجرجاني : محمد عبدالحي اللكنوي ؛ تحقيق تقي الدين الندوي.
- المنح الرحمانية في الدولة العثمانية ؛ اللطائف الربانية على المنح الرحمانية: محمد بن محمد البكري الصديقي ، تحقيق ليلى الصباغ.
- الزيادات على كتاب إصلاح لحن العامة بالأندلس : محمد بن حسن الزبيدي الإشبيلي ، إعداد عبد العزيز الساوري.

فهرس الموضوعات